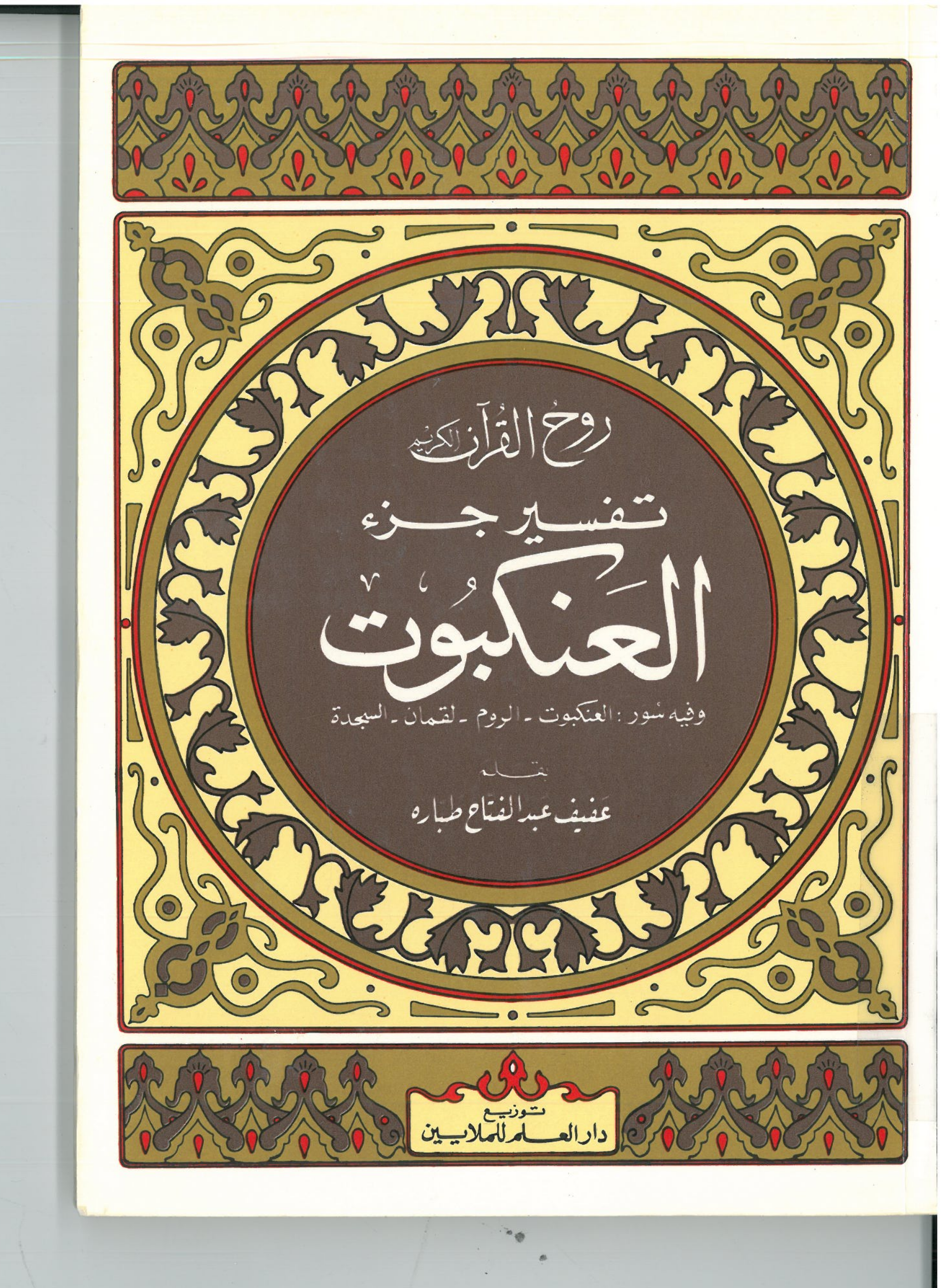

روح القرآن الكريم
تفسير جزء
العنكبوت
وفيه سور: العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره
توزيع
دار العلم للملايين

روح القرآن الكريم

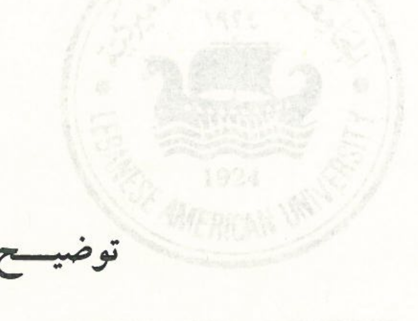
تفسير جزء العنكبوت

وفيه سُوَر: العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة

الجزء الحادي والعشرون

بقلم
عفيف عبد الفتاح طبّاره

دار العلم للملايين

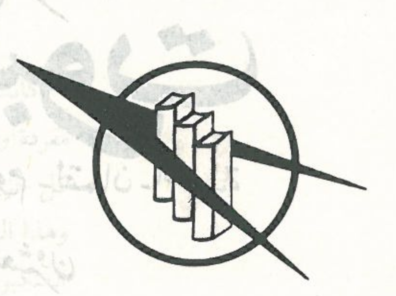


توضيـح

كانت العادة التي جرينا عليها أن نفسّر أجزاء القرآن مفردة وكنا نسمي كل جزء باسم السورة التي يبتدىء بها كل جزء من أجزاء القرآن أو الكلمة التي تستهل بها السورة وهذا الجزء الحادي والعشرون يبتدىء بالآية ٤٦ من سورة العنكبوت وينتهي بالآية ٣٠ من سورة الأحزاب ولما كنا حريصين على تفسير السور كاملة في كل جزء إتماماً للمنفعة فلهذا فسّرنا سورة العنكبوت كاملة وتركنا تفسير سورة الأحزاب بكاملها للجزء الثاني والعشرين وسمينا هذا الجزء «جزء العنكبوت» تجوزاً ليميزه القراء عن غيره من الأجزاء.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التسمية ليست معهودة في كتب تفسير القرآن وإنما جرى العرف بها لاحقاً بين الناس على تداول الأجزاء باسم «جزء عم» و «جزء تبارك» إلى غير ذلك من أسماء الأجزاء المعروفة بأوائل استهلال سورها. ونحن ارتأينا تسمية هذا الجزء باسم السورة التي يبتدىء بها هذا الجزء.

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٩٠

سورة العنكبوت

سُميت هذه السورة بسورة العنكبوت لأن اللّه مثَّل فيها من اتخذ من غيره إلّهاً كالعنكبوت اتخذت بيتاً، مع العلم أن بيت العنكبوت هو أضعف البيوت لا يحمي ساكنه من حرّ أو برد ولا يصمد لريح شديدة أو مطر.

استُهلت هذه السورة ببيان أنه لا بدّ من اختبار المؤمنين بالشدائد والمحن ليظهر الصادق منهم في إيمانه من الكاذب، وأن جهاد المؤمن لنفسه في طاعة اللّه وجهاده لأعداء اللّه إنما يعود نفعه عليه.

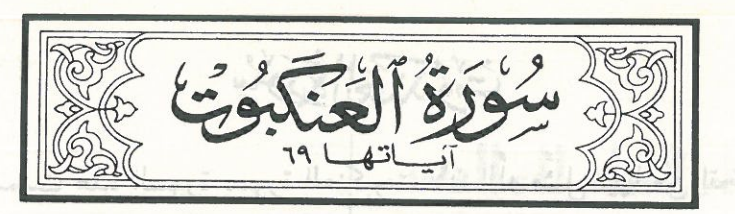
وأوصت السورة المؤمنين بالبِرّ بالوالدين وطاعتهما ما لم يأمرا بمعصية، كما تحدثت السورة عن المنافقين وعقيدتهم المزعزعة التي لا تصمد أمام أذى الكفار، كما تحدثت عن الكفار وأساليبهم الملتوية في إضلال المؤمنين.

وذكرت السورة ما أصاب الأمم السابقة من عقاب إلّهي جزاء كفرها وإفسادها في الأرض.

وفي السورة بيان لأدب المجادلة مع اليهود والنصارى، ودعْوةٌ لأن تكون المجادلة في أمور الدين بالحسنى واللِّين من الكلام.

وتظهر السورة علامة من علامات صدق نبوة محمد ﷺ وهي كونه أميّاً لا يقرأ ولا يكتب ومع ذلك فقد جاء بكتاب فيه من الهدى والتشريع ما يعلو به عن الكتب الدينية السابقة وأنه معجزة في حد ذاته للذين يطلبون المعجزات من نبي الإسلام.

كما تأمر السورة المؤمنين بمغادرة أوطانهم عند استفحال الكفر والرذيلة مطمئنة إياهم بتوفير الرزق لهم أينما حلوا مع تبشيرهم بثواب الآخرة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ
فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾
أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾
مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾
وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ
ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن

شرح المفردات

أَحسِبَ الناس : أظن الناس، والاستفهام للتقرير والتوبيخ .

لا يُفتنون : لا يُختَبرون ويُمتَحنون بما يظهر حقيقة إيمانهم .

أن يَسْبِقونا : أن يفلتوا من طلبنا .

يَرْجُو لقَاء اللّهِ : يطمع في ثوابه .

أَجَلَ اللّه : الوقت المعين للبعث والجزاء يوم القيامة .

جَاهَدَ : بذل وسعه في الدفاع عن الإسلام وعن الامتناع عن المعاصي .

لَنُكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتهم : لنغفرنَّ لهم ذنوبهم .

ووصَّينا الإنسان : أمرنا الإنسان وفرضنا عليه .

بوالديه حُسناً : بما يستحسن من الأعمال برّاً بهما .

جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ
أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ
لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾
وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ
خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا
مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ
ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ
ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

شرح المفردات

جاهداك : بذلا وسعهما وطاقتهما .

فِتْنَة النَّاس : أذى الناس له .

أَثْقالَهُم : أوزار أنفسهم وآثامها .

يَفْتَرون : يختلقون من الأكاذيب .

سُورَةُ العَنكبُوت

يستهل اللّه هذه السورة موضحـاً أن الإيمان ليس كلمـةً تقال وادعـاءً يُعلن بل هو عقيدة ذات أعباء وتضحيات جسام وجهاد:

﴿الٓمٓ[١]. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُـوا أَن يَقُولُـوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُـونَ. وَلَقَـدْ فَتَنَّـا الَّـذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّـذِين صَـدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ (١ - ٣)،

الفتنة هنا بمعنى: الاختبار والامتحان والابتلاء، والمعنى: أظنَّ الناس أنهم يتركون وشأنهم لمجرد أن نطقوا بالشهادتين: شهادة الإيمان بوجود اللّه ووحدانيته، وشهادة الإيمان برسوله محمد ﷺ دون أن يُختَبروا ويُمتَحنوا في إيمانهم، لا، بل لا بدّ من امتحانهم للتثبت من إيمانهم.

---

(١) الٓمٓ: قيل إن هذه الأحرف وما شابهها من الأحرف في فواتح السُّور هي من المتشابه الذي انفرد اللّه تعالى بعلمه. وقيل: إنما ذكر اللّه تعالى هذه الأحرف احتجاجاً على الكفار وذلك أن النبي ﷺ لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشرِ سُوَر، أو بسورة من مثله فعجزوا عنه أنزلت هذه الأحرف تنبيهاً على أن القرآن ليس إلاَّ من هذه الحروف وأنتم قادرون على صياغة الكلام منها وعارفون بقوانين الفصاحة فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن، ولما عجزتم عنه دلَّ على أنه من عند اللّه. وقيل: إن الكفار لما قالوا ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ وتواصوا بالإعراض عنه فأنزل اللّه هذه الأحرف فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين اسمعوا إلى ما جاء به محمد فإذا أصغوا توالت عليهم آيات القرآن فكان ذلك سبباً لاستماعهم وطريقاً إلى انتفاعهم. وقيل: كل حرف منها إشارة إلى اسم من أسماء اللّه تعالى أو صفة من صفاته. وهناك أقوال كثيرة قيلت في هذه الأحرف وهناك رأي لبعض المحدثين أبداه مستعيناً «بالكمبيوتر» وهي أن الأحرف الأبجدية التي تتصدر بعض سور القرآن تتوارد بمعدلات أعلى من باقي الحروف في السورة التي ترد بها هذه الأحرف.

فالإيمان عقيدة ذات تكاليف وأعباء تحتاج إلى صبر ومجاهدة للنفس وتضحية بمشتهيات الحياة ومقتنياتها، فإن اجتاز المؤمنون الامتحان الإلّهي لهم بثبات وتضحية وصبر خرجوا بنجاح واستحقوا أن يكونوا مؤمنين حقيقيين وينالوا مراتب السعادة في الآخرة.

ومن الفتن التي يتعرض لها المؤمن ويخرج منها منتصراً:

ابتلاء اللّه للمؤمن بضروب المحن والمصائب في الأنفس والأموال فيحتسب المصيبة صابراً لوجه اللّه فلا يجزع ولا يعترض على قضاء اللّه.

ومنها: إغداق اللّه النعم على المؤمن أو تضييق الرزق عليه فلايطغى عند الغنى، ولا يكفر عند الفقر.

ومنهـا: قيام المؤمن بـأعباء التكـاليف الشرعيـة ومـا فيهـا من مشاقّ بلا تذمُّر ولا تهاون.

ومنها: مجاهدة المؤمن لنفسه الأمّارة بالسوء عندما تراوده المـرأة عن نفسها أو عند إغراءات الجاه والسلطان وعدم الانسياق وراء الظلم والطغيان.

ومنها: الصمود أمـام مغريـات الزوجـة والولـد فلا يصرفه ذلـك عن واجباته نحو ربّه ووالديه.

ومنها: أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله فلا تتزعزع عقيدته ولا يحيد عن هدفه.

وقـد ذُكـر أن الآيـة السـابقـة نـزلت في قـوم من المسلمين عـذبهم المشركون ففتن بعضهم وصبر البعض الآخر حتى أتاهم اللّه بفرج من عنده.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي أن الاختبار سُنّة قديمة، فلقد اختبر اللّه الأمم القديمة بضروب المحن، فقد ابتُلي بنو إسرائيل بفرعـون، وابتُلي

أتباع عيسى بأعدائهم، فكذلك ابتُلي أتباع محمد بمن يضطهدهم ويعذبهم من المشركين.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الذين صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ ليظهرن اللَّه ما سبق في علمه القديم صدق الصادقين في إيمانهم من الكاذبين منهم، وليميزن اللَّه بينهم.

وقد روي عن خباب بن الأرت قال: «شكونا إلى رسول اللَّه (أي شكوا إليه ما يلاقونه من اضطهاد) وهو متوسد بردة[1] له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصرفه ذلك عن دينه»[2].

وجاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء».

«وحاشا للَّه أن يعذب المؤمنين بالابتلاء وأن يؤذيهم بالفتنة ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلّا بالمعاناة العملية للمشاق وإلّا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلّا بالصبر الحقيقي على الآلام وإلّا بالثقة الحقيقية في نصر اللَّه أو في ثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء»[3].

والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث كما تصهر النار الذهب،

(١) توسَّد بردة: جعلها تحت رأسه، والبردة كساء مخطط يلتحف به.
(٢) رواه البخاري.
(٣) عن كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب.

وتنفي عنه الرديء منه، هذا مع العلم أن أصل معنى فتن في اللغة إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، وكذلك الفتنة في الأنفس تميز الأنفس الطيبة من الأنفس الرديئة.

ثم يتحدث القرآن عن الذين يعملون السيئات ثم عن الذين يعملون الصالحات من الأعمال مبيناً مصير كل منهم في الآخرة:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذين يَعْمَلُون السَّيئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يحكمونَ. مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّه فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ. وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾ (٤ ـ ٦).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي أظن الذين يشركون باللَّه ويقترفون سيِّىء الأعمال ﴿أن يَسْبِقُونَا﴾ أن يعجزونا فلا نقدر عليهم، ويفلتوا من طلبنا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمون﴾ بئس حكمهم الذي يحكمون بأننا عاجزون عن الانتقام منهم.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ من كان يؤمن بالبعث ويرجو رحمه اللَّه وثوابه ويخاف عقابه ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ﴾ فإن اليوم الموعود وهو يوم القيامة آتٍ لا محالة، فليبادر الإنسان إلى العمل الصالح وطاعة اللَّه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ فاللَّه سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم.

﴿وَمَنْ جَاهَدَ﴾ ومن جاهد الكفار في سبيل إعلاء كلمة اللَّه، وجاهد نفسه بالصبر على طاعة اللَّه والامتناع عن المعاصي والذنوب ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ فإن ثواب جهاده يعود نفعه عليه ولا يرجع إلى اللَّه سبحانه نفع من ذلك ﴿إِنَّ اللَّه لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾ إن اللَّه غني عن جميع خلقه لا تنفعه طاعتهم إياه ولا يَضره عصيانهم له.

﴿وَالَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والذين صدَّقوا بوحدانية اللَّه

وبنبوّة محمد، وصح إيمانهم عند ابتلاء الله لهم وعملوا بطاعته ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي لنمحُوَنَّ عنهم سيئاتهم فلا نعاقبهم عليها ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولنجزينهم أوفى جزاء على أعمالهم الصالحة ولنثيبنّهم بأكثر مما عملوا وأحسن منه.

ويتابع القرآن فيذكر نوعاً من الفتنة التي يتعرض لها المؤمن من جهة والديه:

﴿وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ بِوَالِدَيهِ حُسْناً وَإنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بي ما ليس لك به عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إليَّ مَرْجِعُكم فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم تعْملون. وَالَّذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُم في الصَّالِحينَ﴾ (٨ - ٩).

فالله سبحانه أوصى الإنسان بالإحسان إلى والديه وذلك بالبرّ بهما والعطف عليهما، والإنفاق عليهما، وطاعتهما بالمعروف ﴿وَإنْ جاهَدَاكَ﴾ وإن بذل والداك وسعهما وحثّاك ﴿لِتُشْرِكَ بي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي لتتخذ مع الله إلَهاً آخر لا تعلم بوجوده ولا تقرُّ بألوهيته فلا تطعهما في ذلك، فإذا كان الإنسان علم بالعقل والدليل عدم وجود شريك لله فلا يتوجب عليه عبادة غير الله، لأن ما لم يعلم صحته لا يجوز اتباعه ﴿إليّ مَرْجِعُكُمْ﴾ إلى الله معادكم ومصيركم ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم تَعْملونَ﴾ فيخبركم الله يوم القيامة بما كنتم تعملون في الدنيا من صالح الأعمال وسيئها فيجازيكم عليها.

﴿والَّذِين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والذين صدَّقوا بوحدانية الله وبنبوة محمد وعملوا الصالحات من الأعمال على اختلاف أنواعها وأهمها أداء فرائض الله واجتناب نواهيه ﴿لَنُدْخِلَنَّهُم في الصَّالِحِينَ﴾ أي يحشرهم الله في زمرة عباده الصالحين من الأنبياء والأولياء ويكون مجاوراً لهم في

الدرجات العالية في الجنة.

ثم يتحدَّث القرآن عن نوع آخر من الفتنة لم يصمد لها المنافقون الذين أعلنوا الإيمان بألسنتهم لا عن اقتناع منهم:

﴿وَمِنَ النَّاس مَن يَقُول آمَنَّا باللَّهِ فَإذا أُوذِيَ في اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّه وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِن رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا في صُدُورِ العَالَمِين. وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذين آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ المنَافِقِينَ﴾ (١٠ - ١١).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يقُولُ آمَنَّا باللَّهِ﴾ أي ومن الناس الذين يدّعون الإسلامَ من يقول: أقررنا وصدقنا بوجود الله ووحدانيته ﴿فإذا أُوذِيَ في اللَّهِ﴾ فإذا آذاه المشركون بسبب إقراره بوحدانية الله ﴿جعل فتنة الناس كعذاب اللَّه﴾ أي جعل ما يقع عليه من أذى المشركين في الشدة كعذاب الله في الآخرة فارتدَّ عن إيمانه راجعاً إلى الكفر، وكان أذى الكفار صارفاً له عن الإيمان، كما أن الخوف من عذاب الله صارف للمؤمن عن الكفر بالله ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ ولئن نصر الله المؤمنين وأعطاهم الغنائم اعترض هؤلاء المنافقون وقالوا للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ إنَّا كُنَّا مَعَكُم﴾ أي إنا كنا مشايعين لكم في دينكم فأعطونا نصيبنا من الغنائم ﴿أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا في صُدور العَالَمينَ﴾ هذا الاستفهام معناه التقرير، أي قد علم الله ما انطوت عليه الضمائر من خير وشر، ومن إخلاص ونفاق، فكيف يخادع الإنسان ربه الذي لا تخفى عليه خافية ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِين آمَنوا وَلَيَعْلَمَنَّ المنَافِقِينَ﴾ أي ليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ليتميز من يطيع الله عن صدق وإخلاص، ومن يطيعه رياءً ونفاقاً فيظهر الله للناس صدق من صدق في إيمانه ويفضح الله المنافق منهم

ويتابع القرآن فيذكر نوعاً آخر من الفتنة التي يتعرض لها المؤمنون على

يد الكافرين الذين يحاولون إضلالهم بادعاءات باطلة :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُم وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُم وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٢ ـ ١٣).

فالذين كفروا باللّه يقولون للذين آمنوا : ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ والمراد باتباع سبيل الكافرين هي طريقتهم التي كانوا عليها من عبادة الأصنام، والتكذيب بالبعث بعد الممات، وجحود الثواب والعقاب في الآخرة ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُم﴾ أي إنكم إن اتبعتم طريقتنا في ذلك فَبُعِثْتُم بعد الممات وجوزيتم على أعمالكم فإنا نتحمل آثام خطاياكم حينئذٍ. ولكن اللّه يرد عليهم : ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِنْ شَيْءٍ﴾ أي وما هم بحاملين من آثام خطايا المؤمنين من شيء ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وإنهم لكاذبون في دعواهم وما وعدوا المؤمنين به ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُم وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي سيحمل هؤلاء المشركون باللّه الذين حاولوا إضلال المؤمنين خطايا أنفسهم وخطايا من أضلوا وصدوا عن سبيل اللّه مع خطاياهم. والتعبير عن الخطايا بالأثقال للإيذان بمقدار ثقلها عليهم يوم القيامة لما سيحاسبون عليها حساباً عسيراً ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي سؤال تقريع وتبكيت ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ عما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل.

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر الفتنة التي ابتلي بها أنبياء اللّه مع أقوامهم، وما لاقوه منهم من ألوان المكاره والإيذاء، بما فيه قدوة وعزاء للمؤمنين :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٤ ـ ١٥).

أي لا يحزنك يا محمد وأصحابك ما تلقون من الأذى من المشركين فإن مصيرهم إلى الهلاك، ومصيرك ومصير المؤمنين إلى الفوز والنجاة، كما فعل ربك مع نوح عليه السلام إذ أرسله اللّه إلى قومه فلبث فيهم تسعمئة وخمسين عاماً يدعوهم إلى عبادة اللّه وحده وَتَرْكِ عبادة الأصنام والأوثان، فلم يزدهم دعاؤه إياهم إلّا ابتعاداً عنه ورفضاً لدعوته، إلى أن أهلكهم اللّه غرقاً بالطوفان. وهو الماء الكثير الذي غمرهم فأهلكهم ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وهم ظالمون لأنفسهم بكفرهم واستمرارهم عليه ﴿وَأَنْجيناه وَأَصْحَابَ السَّفِينة﴾ أي أنجى اللّه نوحاً ومن معه في السفينة من أولاده وأزواجهم ومن أتباعه المؤمنين ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِين﴾ أي وجعل اللّه السفينة عبرة عظيمة للناس الذين جاءوا بعدهم، حيث أنجى اللّه المؤمنين وأهلك الكافرين، أو جعلها حجة وآية حيث بقيت مدة طويلة على جبل الجودي بعد انحسار الماء ورآها الكثير من الناس.

واختُلِفَ في مبلغ عمر نوح عليه السلام فقيل : كان عمره ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، وقيل إن هذه المدة كانت المدة التي دعا فيها قومه إلى عبادة اللّه، وأن هناك مدة إضافية من الزمن قبل دعوته قومه إلى عبادة اللّه ومدة بعد هلاك قومه بالطوفان، واختلف في تعيين هذه المدة، وقيل إن المدة المذكورة في القرآن هي مدة إقامته في قومه من لدن مولده إلى غرق قومه فقط.

أما طول عمر نوح عليه السلام والذي يبدو لنا غير مألوف، فإنا نتلقاه بقبول لأنه صادر من رب العالمين، ويمكن أن نجد له تفسيراً ـ واللّه أعلم ـ هو أن عدد البشرية يومذاك كان قليلاً، فليس ببعيد أن يعوض اللّه تلك الأجيال بطول العمر لعمارة الأرض. وهذه الظاهرة ملحوظة في أعمار كثير

من الأحياء فكلما قلَّ العدد، وقلَّ النسل طالت الأعمار، كما في النسور وبعض الزواحف حتى ليبلغ عُمر بعضها مئات السنين بينما الذباب الذي يتوالد بالملايين فهو قصير العمر.

هذا مع العلم أن تلوث البيئة لم يكن قد حل بالكرة الأرضية وما يستتبع ذلك من أمراض وآفات، ولكن بالرغم من ذلك فإن العمر عطاء رباني لا يخضع لأي اعتبار.

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا
وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا
فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾
وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ
﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ
ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ
مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ
وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا
كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم

شرح المفردات

تَخْلُقُون إفْكاً : وتصنعون أصناماً وتفترون كذباً بأنها آلهة.

فابْتَغوا : فاطلبوا.

تُقْلَبُونَ : تُردّون وترجعون.

بِمُعْجِزِينَ : بفائتين ربكم عن إدراككم.

بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾
* فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ
وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ
فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ
ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾
وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ
ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ
بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ

شرح المفردات

مأواكم : منزلكم الذي تأوونَ إليه.

والكتاب : أي الكتب المقدسة التي أُنزلت على الأنبياء.

الفَاحِشَةَ : المراد بها هنا اللواط.

تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ : تسطون على المسافرين وتأتون الفاحشة بهم.

وَتَأْتون في نَاديكم المنكر : وتأتون في مجلسكم المنكر والفواحش علناً.

من الغَابرين : من الهالكين.

رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ
إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ
عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا
مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

شرح المفردات

رُسُلُنَا : أي ما أرسله الله من الملائكة.

سِيءَ بهم : ساءه مجيئهم.

ضَاقَ بهم ذَرْعاً : ضاق صدره عن تدبير أمرهم.

رجزاً : عذاباً.

يَفْسُقون : يخرجون عن طاعة الله ويرتكبون المعاصي.

آيَةً بَيِّنَةً : علامة وآثاراً واضحة تدل عليهم.

تابع سورة العنكبوت

وبعد الكلام عن نبي اللّه نوح يأتي الكلام عن نبي اللّه إبراهيم :

﴿وإبْراهيمَ إذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّهَ واتَّقُوه ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إن كُنْتُم تَعْلَمُونَ . إنَّما تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أوثاناً وَتَخْلُقُون إفكاً إنَّ الّذِين تَعْبُدون مِنْ دُونِ اللّهِ لا يملكون لَكُمْ رِزْقاً فابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرِّزْقَ واعْبُدُوهُ واشْكُروا لَهُ إلَيهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٦ - ١٧) .

أي واذكر يا محمد أيضاً نبي اللّه إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا اللّه دون غيره من الأوثان والأصنام فإنه لا إله لكم غيره ﴿واتَّقُوهُ﴾ أي واتقوا سخطه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم﴾ أي ما ذكر من العبادة والتقوى خير لكم مما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام ﴿إنْ كُنْتم تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم تعلمون الخير من الشر وتميزون أحدهما عن الآخر .

﴿إنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أوثاناً﴾ والأوثان : جمع وثن وهو الصنم ، وقيل : الصنم ما يتخذ من ذهب أو فضة أو من معدن آخر ، والوثن ما يتخذ من جص أو حجارة ، فعبادة الأوثان عبادة سخيفة بل تُعدُّ تحقيراً للعقل البشري ، فكيف يعبد الإنسان صنماً من صنعه ويفتري كذباً بأنه إله لذا تقول الآية ﴿وَتَخْلُقونَ إفْكاً﴾ تخلقون : تعملون وتنحتون ، وتأتي بمعنى : تكذبون . والإفك هو الكذب . فيكون المعنى : إنكم تعملون الأصنام وتنحتونها للكذب أو بمعنى إنكم تكذبون كذباً حيث تسمونها آلهة وتدّعون أنها شفعاؤكم عند اللّه . ﴿إنَّ الَّذِين تَعبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ﴾ أي إن أوثانكم التي تعبدونها من دون اللّه ﴿لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ لا تقدر أن ترزقكم شيئاً ﴿فابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرِّزْقَ﴾ فالتمسوا الرزق عند اللّه تُدركوا ما تطلبون ﴿وَاعْبُدُوه وَاشكروا لَهُ﴾ واخضعوا له وحده وتذللوا له ، واشكروا اللّه على

نعمه التي أعطاكم إياها ﴿إلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إلى اللّهِ تُردُّون بعد مماتكم فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم لغيره سبحانه .

ثم تأتي الآيات التالية معترضة بين الكلام عن إبراهيم ، وهذه الآيات موجهة إلى المشركين وإلى كل مُنكِر للّه ، مُنكِر للقائه بعد الممات :

﴿وَإنْ تُكَذِّبوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُم وَما عَلَى الرَّسُولِ إلاّ البلاغُ المُبِينُ . أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسيرٌ . قُلْ سِيرُوا في الأرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللّهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ . يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإلَيْهِ تُقْلَبُونَ . وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ في الأَرْضِ وَلاَ في السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ . وَالَّذين كَفَرُوا بآياتِ اللّهِ وَلِقائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ﴾ (١٨ - ٢٣) .

﴿وَإنْ تُكَذِّبُوا﴾ أي وإن تكذبوا أيها المشركون رسول اللّه محمداً فيما دعاكم إليه من عبادة ربكم وحده ، والبراءة من الأوثان التي تعبدونها ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فقد كذبت جماعاتٌ من الأمم قبلكم رسلَ اللّه فيما دعتهم إليه من عبادة اللّه وحده فحلّ بهذه الأمم سخط اللّه ونزل بها عاجل عقوبته ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ البَلاغُ المبينُ﴾ وما على محمد إلاّ أن يبلّغكم عن اللّه ما أُمِرَ به ببلاغ واضح .

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ اللّهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ﴾ هذا الكلام للإنكار على المشركين لتكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله . والمعنى : ألم ينظروا ويعلموا كيف يخلقهم اللّه ابتداءً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم ينفخ فيهم الروح ثم يخرجهم إلى الدنيا ثم يتوفاهم بعد ذلك ، وكذلك سائر الحيوانات وسائر النباتات ، وهكذا تستمر دورة الحياة منذ بدء الخليقة ما دامت الدنيا على

نظامها المعهود. هؤلاء المكذبون بالبعث نظروا وعلموا ذلك فكيف يستبعدون قدرة الله على إعادة الموتى أحياء يوم البعث ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إنَّ ذلك سهل هيِّن على الله.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ أي قل يا محمد للمنكرين للبعث سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الله خلق الأشياء على كثرتها واختلاف ألوانها وطبائعها وانظروا إلى آثار مساكن القرون الماضية والأمم الخالية لتعلموا بذلك كمال قدرة الله. هذه الآية أقامت صرح علم «الجيولوجيا» قبل أن يلد هذا العلم، فبعد قرون كثيرة من نزول القرآن أعلن عالم إسكتلندي اسمه هاتون نتائج أبحاثه قائلاً: إن تاريخ الأرض وما عليها مكتوب بين طيات قشرتها. ومنذ ذلك الوقت ولد علم الجيولوجيا الذي يقوم على الحفريات في الأرض واستكشاف تاريخ الخليقة منذ بدئها حتى الآن.

﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ ثم ينشىء الله الحياة الآخرة حيث يبعث الناس أحياء بعد فنائهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إن الله قادر على خلق كل شيء بدءاً وإعادةً لا يعجزه شيء أراده ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ وبعد أن يعيد الله الناس أحياء بعد فنائهم يعذب من يشاء منهم على ما أجرموا في حياتهم الدنيا ويرحم من يشاء منهم ممن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ وإلى الله ترجعون وتردون بعد الممات.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ ولستم أيها المكذبون بالبعث بغالبين لقدرة الله، ولا تفوتونه إن هربتم من حكمه سواء كنتم في الأرض أو في السماء ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ وليس لكم أيها الناس غير الله من ولي يلي أموركم ولا نصير يدفع عنكم عذابه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾ والذين جحدوا آيات القرآن والدلائل على وحدانية الله وكذبوا رسله وأنكروا لقاء الله والبعث والحساب ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ أولئك يئسوا من رحمة الله ودخول الجنة في الآخرة عندما يعاينون ما أعد الله لهم من العذاب ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وأولئك لهم عذاب موجع، ووصف العذاب بكونه أليماً للدلالة على أنه في غاية الشدة.

ثم يعود بنا القرآن للكلام عن نبي الله إبراهيم عليه السلام وإتمام قصته:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٤ - ٢٥).

أي فلم يكن جواب قوم إبراهيم عندما قال لهم: اعبدوا الله واتقوه إلاّ أن قال بعضهم لبعض اقتلوه أو حرّقوه بالنار، ففعلوا وأرادوا إحراقه فأضرموا له النار وألقوه فيها فأنجاه الله منها بأن قال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في إنجاء الله لإبراهيم من النار بعد أن أُلقي فيها لدلائل وعبر وعلامات ظاهرة على عظيم قدرة الله، وإنما خص الله المؤمنين بالذكر لأنهم هم الذين يتعظون دون غيرهم.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً﴾ وقال إبراهيم إنما اتخذتم الأوثان آلهة تعبدونها متجاوزين عبادة الله وحده ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لتتحابوا فيما بينكم وتتواصلوا على عبادتها وخدمتها. فهم

ما اتخذوا الأوثان آلهة اعتقاداً واقتناعاً بأنها جديرة بالعبادة، إنما يجامل بعضهم بعضاً على هذه العبادة استبقاء لما بينهم من مودة ولمنافع ذاتية يبتغونها ولكن على حساب الحق.

﴿ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ ثم يوم القيامة ـ أيها المتوادّون على عبادة الأوثان ـ عندما تحشرون إلى ربكم وتعاينون ما أُعدّ لكم من العذاب ينكر بعضكم بعضاً فيتبرأ القادة من الأتباع، والأتباع من القادة ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً﴾ أي يسب ويدعو بعضكم على بعض بالبعد من الخير أو من رحمة الله. ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ ومصيركم جميعاً إلى النار ﴿وَمَا لَكُم مِن نَاصِرِينَ﴾ وما لكم من أنصار ينصرونكم من الله حين يصليكم نار جهنم فينقذونكم من عذابه:

ويتابع القرآن الكلام عن إبراهيم عليه السلام:

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٦ ـ ٢٧).

لوط هو أول من صدّق بنبوة إبراهيم حين رأى النار برداً وسلاماً عليه وكان ابن أخيه ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ القائل بذلك هو إبراهيم وهو أول من هاجر من أرض الكفر إلى أرض يعبد الله فيها بسلام، هاجر من قرى ما بين النهرين في العراق إلى (حرّان) في أقصى ما بين النهرين غرباً ثم إلى فلسطين ومعه ابن أخيه لوط.

تأمل قول إبراهيم: ﴿إني مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ إنه لم يهاجر للتجارة أو إلى أي غرض دنيوي، وإنما هاجر إلى ربه متقرباً إليه، ملتجئاً إلى حِماه، وهكذا على المؤمن عندما تضيق في وجهه أبواب الفرج، عليه أن يهاجر إلى

الله بقلبه وكيانه ليكشف الضُرّ عنه، وأن يهاجر من بلده عندما يخاف الفتنة على نفسه وولده عند استفحال الفواحش والمنكرات إلى بلد يجد فيه الأمن على نفسه وولده ﴿إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ إن ربي هو القوي الغالب الحكيم في تدبير خلقه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وبعد فراق إبراهيم قومه منّ الله عليه بالأولاد فوهب له إسحٰق ولداً بعد إسماعيل ويعقوب من إسحٰق أي حفيده ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ﴾ فكل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته والكتاب: اسم جنس للكتب الإلهية التي أُنزلت على ذريته من الأنبياء. فالزبور أُنزل على داود عليه السلام، والتوراة أُنزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل أُنزل على عيسى عليه السلام، والقرآن أُنزل على محمد ﷺ وهؤلاء الأنبياء كلهم من ذرية إبراهيم، ومحمد يرجع نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام.

﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ وهو الثناء الحسن عليه من أهل كل الأديان: اليهودية، والنصرانية، والإسلام، فكل أتباع الأديان يحبونه ويذكرونه بالخير وينتمون إليه ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهو في الحياة الآخرة في عداد الكاملين في الصلاح الذين لهم الدرجات العليا في الجنة.

ثم تأتي قصة لوط عقب قصة إبراهيم، فقد هاجر لوط مع إبراهيم إلى فلسطين وبعدها إلى مصر، وعند رجوعهما من مصر اختار لوط بقعة الأرض التي تقوم عليها مدينتا سدوم وعمورة في وادي الأردن وأقام بمدينة سدوم.

وكان أهل مدينة سدوم أفجر الناس وأكفرهم وقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي اللواط، فأرسل الله نبيه لوطاً إليهم بالرسالة الإلهية لهدايتهم وتحذيرهم من سوء أفعالهم، إقرأوا قوله تعالى:

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ. أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢٨ ـ ٣٠).

أي واذكر يا محمد إذ أرسلنا لوطاً إلى قومه فدعاهم إلى عبادة الله وحده وأنكر عليهم العمل الفاحش الذي كانوا يفعلونه ـ وهو اللواط ـ الذي لم يسبق إلى فعله أحد من خلق الله وقال لهم: ﴿أَئِنَّكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ أي إنكم تفعلون الفاحشة بالرجال في أدبارهم ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ وقطع السبيل عمل قطاع الطرق من قتل الأنفس وأخذ الأموال، كما كانوا يفعلون الفاحشة بمن مرَّ عليهم من المسافرين ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرِ﴾ النادي: المجلس، أي كانوا يجامعون الرجال في مجالسهم علناً، وإضافة إلى ذلك كانوا يرمون المارة بالحصى ويسخرون بهم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ أي فما كان ردُّ قومه عليه حين نصحهم بالكف عن معاصيهم وحذرهم من عذاب الله ﴿إِلاَّ أن قَالُوا آئْتِنا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء آئتنا يا لوط بالعذاب الذي تعدنا به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إن كنت صادقاً فيما تهددنا من نزول العذاب، أمام هذا التبجح والتحدي المصحوب بالتكذيب توجه لوط إلى ربه قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

ويتابع القرآن فيذكر الأحداث التي سبقت هلاك قوم لوط من إرسال الله ملائكة نزلوا ضيوفاً على إبراهيم متنكرين بصورة فتيان فبشروه بولد سَيُرْزَقُهُ، وأخبروه بأنهم ذاهبون لإهلاك قوم لوط، فارتاع من ذلك لأن فيهم ابن أخيه لوط، فطمأنته الملائكة بنجاته من العذاب:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ﴾ (٣١ ـ ٣٢).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَمَّا جاءَت رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ أي وحين جاءت الملائكة المرسلة من الله إلى إبراهيم بالبشرى بولد سيرزقه اسمه إسحق وولد الولد يعقوب ﴿قَالُوا إِنَّا مُهلِكوا أَهلِ هَذِهِ القَرْيَةِ﴾ أي قالت الملائكة لإبراهيم إن الله أمرهم بإهلاك قرية سدوم ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ تعليل لسبب إهلاكهم بإصرارهم على الظلم وتماديهم في الفحش وأنواع المعاصي ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً﴾ أي قال إبراهيم إن في قرية سدوم لوطاً فكيف تهلكونها ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ فأجابته الملائكة بأنهم يعلمون من فيها وغير غافلين عن مكان لوط ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ اللام الداخلة على لننجينه لام القسم أي والله لننجينه وأهله من الهلاك الذي هو نازل بقريته ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ﴾ أي كانت من الباقين في العذاب أو في القرية التي سينزل بها العذاب ولا ينجيها كونها امرأة لوط لأنها ساء عملها وخانت زوجها وأصرت على كفرها.

ثم يصف القرآن نجاة لوط وهلاك قومه:

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ. إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٣٣ ـ ٣٥).

أي وبعد فراق الملائكة إبراهيم ومجيئهم إلى لوط ﴿سِيءَ بِهِم﴾ أي ساءه مجيئهم لأنه ظنهم من البشر وهم جاءوه متنكرين بصورة شباب حسان الوجوه ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ أي وضاق بشأنهم طاقته ووسعه خوفاً من اعتداء

قومه عليهم بالفاحشة ﴿وقالوا: لا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ وقـالت الملائكـة للوط لما رأوا عليه أمارات القلق لا تخف من قومك علينا، ولا تحزن لأجلنا، فإننا ملائكةٌ ولسنا بشراً فـلا قدرة لهم للوصـول إلينا ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ ممـا يصيبهم من العذاب ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ﴾ أي من الهالكين ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى هَذِهِ القَرْيَةِ رِجْزاً[1] مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي إنّا منزلون على هذه القرية عذاباً من السمـاء ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بما كـانوا يـأتون من معصيـة اللّه ويخرجون عن طاعته.

ولما آن وقت العذاب الذي قدره اللّه عليهم بعث الملك جبريل فاقتلع قـراهم من قـرار الأرض ثم قلبهـا عليهم، وأرسـل عليهم حجـارةً من طين متحجر صلب كانت تنهال عليهم متتابعة منتظمة ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي ولقد أبقينا من قراهم علامـة ودلالة بينـة هي قصتهم العجيبة ومصيـرهم الأسـود وآثار الخـراب في ديارهم الـذي هو عـظة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لقـوم يتفكرون في مواعظ اللّه ويعتبرون بما جرى لقوم لوط.

والبقعـة التي أصابهـا العذاب هي البقعـة التي تعرف اليـوم بـالبحـر الميت، ويـرى بعض العلماء أن البحـر الميت لم يكن مـوجـوداً قبـل هـذا الحادث، وإنما حـدث من الزلـزال ما جعـل أعالي البـلاد سافلهـا وصارت منخفضة عن سطح البحر بنحو أربعمائة متر، وقد جاءت الأخبار في السنين الماضية عن اكتشاف آثار مدن لوط على حافة البحر الميت.

(١) الرجز: ويقال الرجس، وهو العذاب من قولهم: ارتجز وارتجس إذا اضـطرب لما يلحق المعذب من القلق والاضطراب. وما أشبه العذاب الذي يأتي من السماء بما يحصل حالياً في الحروب من سقوط القنابل والصـواريخ على المـدن فتلقي في نفوس النـاس الرعب والاضـطراب وتلحق بهم العذاب والخراب والهلاك، والسمـاء ما يقابـل الأرض وكـل ما علاك فأظلك يقال له سماء.

وكلمـة صريحـة نقولهـا: إن القرآن استهجن فـاحشـة اللواط وأوعـد مرتكبها بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة، ولكن العار هو أن بعض الدول الغربية التي تدعي الحضارة أبـاحت مزاولـة هذه الفـاحشة متعللة بـالحريـة الشخصية، ولكن هل الحرية الشخصية هدم الفطرة الإنسانية والخروج بهـا عن طبيعتها السامية وإتيان الشهوة في الموضع الذي تتقزز منه النفس ويأنف منه الحيوان؟

هل الحرية إباحة هذه الفاحشة التي تسيء إلى النسـاء وتجني عليهن بسبب انصـراف الرجـال عنهن، وتعطل النسـل وتقضي على نـظام الأسـرة وما فيها من سعادة وطمأنينة؟

ولكن الحكمة الإلٓهية لا تترك الفساد يستشري بلا عقاب فقد طـالعتنا الأخبار الطبية منذ زمن ليس ببعيـد عن وجود مـرض خطيـر فتّاك بـدأ ينتشر ويهدد العالم المتحضر بشر الويلات وهو مرض فقدان المناعة المكتسبة عند الإنسـان (الإيدز) وهـذا المرض أكثـر ما يصيب الـذين يمـارسـون الشـذوذ الجنسي، ويصيب أيضاً الذين ينتقل إليهم دم من متبرعين مصـابين بفقدان المناعة، وكذلك ينتشر هذا المرض بالعدوى عند الاتصال الجنسي وبواسطة حقن المخدرات.

والإسلام جعل أقصى العقوبة على من يزاول اللواط فقد قـال رسول اللّه محمد ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[1]. وذلك لتطهير الأرض منهم.

(١) رواه الإمام أحمد.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ
يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا
وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ
وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ
وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ

شرح المفردات

ولا تَعْثَوْا في الأرْض مُفسدين : ولا تكثروا من الفساد في الأرض.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَة : فأهلكتهم زلزلة شديدة.

جاثِمين : موتى هامدين لا يتحركون.

وَزَيَّنَ لهم الشيطان أعمالهم : وحسَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من المعاصي.

فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبيلِ : فصرفهم عن سبيل الله.

وكانوا مُسْتبصرين : وكانوا عقلاء متمكنين من التدبر والفهم.

سابِقينَ : مفلتين من الطلب.

أَخَذْنَا بذنبه : جازاه الله وأهلكه بذنبه.

حاصِباً : ريحاً عاصفة فيها حصىً.

أَخَذَتْهُ الصيحة : أهلكته صيحة من السماء مدوية مرعبة.

أولياء : المقصود الأصنام التي كانوا يبغون منها النفع (جمع ولي).

ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ
ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ
إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ
وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ *

شرح المفردات

أَوْهَن : أضعف.

يَدْعون من دُونه : يعبدون غيره.

نضْربها : نجعلها مثلاً ونمثلها.

الفَحْشاء : الزنا وكل فعل قبيح منكر.

المنكر : أنواع المعاصي. وكل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه.

تابع سورة العنكبوت

وبعد الكلام عن لوط ينتقل القرآن إلى الكلام عن النبي شعيب عليه السلام، وقومه هم أهالي (مدين) وهي قرية تقع في أرض معان من أطراف الشام مما يلي الحجاز وهم عرب ينتسبون إلى مدين بن إبراهيم الخليل.

وكان أهل مدين لا يؤمنون بالله ويعبدون سواه ويفسدون في الأرض. وكانوا من أسوأ الناس معاملةً ينقصون الكيل والميزان إذا باعوا، ويبخسون الناس أشياءهم، وقد تكلم القرآن عنهم في سورة هود وسورة الأعراف وهو في هذه السورة يوجز الكلام عنهم:

﴿وإلى مَدْيَنَ أخاهم شُعَيْباً فقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ (٣٦ - ٣٧).

فالله تعالى يقول: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخاهُم شُعَيباً﴾ أي وإلى مدين أرسلنا أخاهم شعيباً، وَسُمّي أخاهم لأن شعيباً هو من ذرية مدين بن إبراهيم الذي هو أبو القبيلة التي تسمى المدينة باسمه، فكما أن شعيباً ينسب لمدين فكذلك قومه كذلك سموا بأهل مدين ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فقال شعيب لقومه: اعبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة والطاعة ﴿وارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ﴾ والرجاء يأتي بمعنى: تَوَقُّعُ أمرٍ فيه مسرّة، كما يأتي بمعنى: الخوف، والمعنى: وارْجُوا بعبادة ربكم وابتعادكم عن الذنوب ثواب ربكم في اليوم الآخر بعد الممات. أو بمعنى: وخافوا عقاب الله في اليوم الآخر، هذا وقد كان القوم ينكرون ذلك اليوم ﴿وَلَا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العُثُوُّ والعِثيّ: أشد الفساد، أي لا تكثروا الفساد في الأرض وعصيان الله فيها، بل توبوا إلى الله من ذنوبكم وارجعوا إليه بالطاعة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ فكذب أهل مدين شعيباً فيما جاءهم به من عند الله من الأوامر والنواهي فكان عقابهم أن أهلكتهم الزلزلة الشديدة التي نشأت من صيحة الملك جبريل ﴿فَأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فأصبحوا في بلدهم ومنازلهم موتى هامدين لا يتحركون.

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى الكلام عن قوم عاد، وقوم ثمود، وما أصابهم من هلاك جزاء كفرهم:

﴿وَعَاداً وَثَمُود وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (٣٨).

فقوله تعالى: ﴿وَعَاداً وثمود﴾ منصوبان بإضمار فعل ينبىء عنه ما قبله، أي وأهلكنا[1] عاداً وثمودَ ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي وقد تبين لكم أيها المشركون من آثار مساكنهم الخَرِبة كيف أهلكهم الله وأبادهم وذلك عند ذهابكم إلى الشام أو الإياب منها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وَحَسَّن لهم الشيطان سوءَ أعمالهم من الكفر بالله وتكذيبهم رسله فرأوها حسنة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ فمنعهم الشيطان وصرفهم عن طرق الهداية والحق والخير ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ وكانوا عقلاء يمكنهم التمييز بين الحق والباطل بالاستدلال والنظر ولكنهم لم يفعلوا ذلك، أو بمعنى: وكانوا مستبصرين في ضلالتهم يحسبون أنهم على هدى وصواب وهم كانوا على ضلال.

ثم يذكر القرآن قارون وفرعون وهامان:

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا في الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ (٣٩).

---

(١) لأن قوله تعالى فيما سبق ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ يدل عليه لأنه في معنى الإهلاك.

الآية معطوفة على ما قبلها، أي وأهلكنا قارون وفرعون وهامان. أما قارون فقد ورد الكلام عنه في سورة القصص وكان من قوم موسى فبغى عليهم بثرائه ولم يستمع إلى نصح الناصحين من وجوب الإحسان إلى الفقراء وعدم البغي والفساد في الأرض.

وأما فرعون فكان طاغياً غشوماً يرتكب أبشع الجرائم، كقتله ذكور بني إسرائيل ظلماً، وتسخير الناس لمطامعه وشهواته وجعلهم فرقاً، وهامان كان وزيره المدبر لمكائده المعين له على ظلمه ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي لقد جاء موسى إلى هؤلاء جميعاً بالحجج الواضحة، والمعجزات الظاهرة التي تشهد أنه رسول الله ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فاستكبروا عن عبادة الله وعن اتباع موسى فيما جاء به عن ربه ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ وما كانوا ليفوتوا ويفلتوا من عقاب الله بل كان مقتدراً عليهم.

ثم يبين الله أنواع العذاب الذي ألحقه بهذه الأمم السابقة:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٠).

فالله سبحانه يقول: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ أخذنا: معناها عاقبنا، أي فكلاً من الأمم السالفة العاصية التي جاء ذكرها عاقبها الله بذنبها ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم قوم لوط، والحاصب هي الريح العاصف التي تحمل لشدتها الحصى الصغار ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ أي ومنهم من أهلكته صيحة العذاب وهُم ثمود قوم النبي صالح وأهل مدين قوم النبي شعيب ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كما حصل لقارون حيث جعل الله الأرض تغور به وتغيبه فيها ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح حيث أُغرقوا بالطوفان،

وفرعون وجنده الذين أُغرقوا بالبحر ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ وما كان الله ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بارتكابهم الذنوب التي تعرضهم لعقاب الله.

فالله سبحانه يعاقب الأمم على ما تقترفه من الذنوب، هذه هي الحقيقة التي أراد الله أن يضعها أمام أعين الناس جميعاً على مرّ العصور لتكون على بصيرة من أمرها، وقد وضع القرآن أمثلة حية على ذلك مأخوذة من وقائع التاريخ بما أصاب بعض الأمم من عقاب بسبب ذنوبها.

فالكفر بالله والظلم، والبغي والكبرياء في الأرض وأكل أموال الناس بالباطل والاعتداء عليهم بالقتل والسلب وقطع الطرق وشيوع اللواط والزنا والفساد في الأرض هذه كلها وغيرها من الذنوب تستوجب عقاب الله في الدنيا مع عقاب الآخرة.

ونرى اليوم ما يصيب الأمم من حروب مدمرة فتتساقط القنابل على الناس في ديارهم فتثير الرعب والخراب والقتل في صفوفهم، ومن حروب أهلية تأتي على الأخضر واليابس، ونسمع ونرى على الشاشة المرئية ما أصاب بعض المدن من زلزال محاها من الوجود، ومن أعاصير وسيول تدمر وتقتلع ما أمضى الإنسان معظم عمره في تشييده وغرسه، ونسمع ونقرأ عن انتشار أمراض فتاكة لم تكن معروفة من قبل، كل ذلك بسبب ظلم الإنسان لنفسه وخروجه عن هدى الله وطاعته.

وبعد أن بيَّن الله مصير الذين أشركوا بالله واقترفوا السيئات بيَّن بعد ذلك أن الاعتماد على آلهة غير الله هو اعتماد ضعيف واهن شبيه بضعفه ببيت العنكبوت:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا

وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيوتِ لَبَيْتُ العَنكبوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم. وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمونَ. خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰواتِ وَالأَرضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً للمؤمنين﴾ (٤١ ـ ٤٤).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾[1] أي مَثَلُ الذين اتخذوا من غير اللَّه آلهة يرجون نفعها ونصرها ويلجأون إليها في الشدائد ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾ فهم في حالهم هذا كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فبيت العنكبوت ضعيف لا يصمد لريح أو مطر غزير ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ وإن أضعف البيوت لبيت العنكبوت ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان المشركون يعلمون أن عبادتهم للأوثان شبيهة ببيت العنكبوت في ضعفه لأقلعوا عن عبادتهم هذه، ولظهر لهم أن عبادتهم باطلة لا تنفعهم في شيء لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وفي الآية معانٍ خفية تظهر إعجاز القرآن وبلاغته يشع في كل كلمة من كلماتها:

فالقرآن يختار صفة التأنيث عندما يتحدث عن العنكبوت فيقول: ﴿اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾ وقد كشف العلم أخيراً أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت وليس الذكر وهذه حقيقة لم يكن يعلمها الناس في زمن نزول القرآن.

وحقيقة أخرى هي وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت ولم يقل القرآن خيط العنكبوت وإنما قال بيت العنكبوت، وهي مسألة لها دلالتها

---

(١) أولياء: جمع ولي وهو النصير الذي يهيىء للإنسان ما يبغيه من الخير وينفعه. والأولياء هنا المراد بها أصنام المشركين الذين كانوا يتخذونها آلهة ويعبدونها ويرجون منها الخير والنفع.

والعلم كشف الآن أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب ثلاث مرات وأقوى من خيط الحرير وأكثر منه مرونة، وهو أدق خيط معروف إلى اليوم قطره يبلغ نحو ثلاثة أعشار جزء من ألف من المليمتر.

وحقيقة أخرى هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ﴾ فبيت العنكبوت أبعد البيوت من صفة البيت بما يستلزمه من أمان وسكينة واطمئنان، فالعنكبوت الأنثى تقتل ذكرها بعد أن يلقحها لذا يعمد الذكر إلى الفرار بجلده بعد أن يلقحها، وصغار العناكب يأكل بعضها بعضاً بعد الخروج من البيض، وتغزل أنثى العنكبوت بيتها ليكون فخاً وكميناً لكل حشرة صغيرة وكل من يدخل البيت من حشرات يقتل ويلتهم، إنه ليس بيتاً بل مكاناً يخيم عليه الجبن والخوف والشراسة وهو أوهن[1] البيوت لمن يحاول أن يتخذ منه مأوى[2].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما: بمعنى الذي. ويدعون: بمعنى: يعبدون. فاللَّه يعلم الذين يعبدون غيره من أصنام وأوثان ومظاهر طبيعية وغير ذلك ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ هذه الأوصاف الإلٰهية تجهيل لعبدة الأصنام حيث عبدوا ما لا يستحق العبادة، وتركوا عبادة اللَّه ﴿العزيز﴾ أي القوي الغالب ﴿الحكيم﴾ والحكمة من اللَّه معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام.

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي هذا المثل الذي أورده اللَّه عن العنكبوت وغيره من الأمثال يمثلها اللَّه للناس ويبينها لهم ليأخذوا منها العبرة ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمونَ﴾ أي وما يدركها ويفهمها إلاّ الراسخون في العلم.

---

(١) أوهن: الوهن الضعف من حيث الخَلْق والخُلُق، ويقال وهن الرجل جبن من لقاء العدو.
ووهن: ضعف في الأمر والعمل والبدن.

(٢) عن كتاب «القرآن» للأستاذ مصطفى محمود.

وهنا يعترضنا سؤال: ما علاقة المثل الذي ضربه الله للناس ببيت العنكبوت والذي يدركه الراسخون في العلم، سؤال نجيب عنه باختصار، فالعناكب فيها من إبداع الصنعة الإلّهية الشيء الكثير، سواء من ناحية تكوينها الجسدي من القناة الهضمية ودورة الدم وجهاز التنفس والأحاسيس والبصر والجهاز الهضمي بما يضيق بنا المجال في الكلام عنها بإسهاب. ولكن ما تختص به العنكبوت دون سائر حشرات الأرض هو النسيج التي تصنعه بأشكال هندسية وبه تصطاد فريستها.

فالعناكب لها مغازل موضعها في البطن في مؤخرتها وهي عادة ثلاثة أزواج أو أربعة أزواج وكل مغزل من هذه به ثقوب عدة، وهذه الثقوب تتصل من الداخل بالغدد التي تفرز السائل الذي يتحول إلى خيط بمجرد تعرضه للهواء. واتصال هذه الثقوب بالغدد يكون عن طريق قنوات. وهذا الجهاز الذي نسميه المغزل في العنكبوت أشبه بالجهاز الذي نسميه الثدي في المرأة. وفي مغازل العنكبوت عدد من الثقوب بل عدد من الأنابيب الغازلة كبير جداً يبلغ أحياناً الألف، ولكن في البعض الآخر من أنواع العناكب تقل الأنابيب الغازلة عن المائة. ولكل فصيلة من فصائل العناكب شكل لبيته، وأكثر هذه الأشكال تعقيداً وتركيباً وحسن صنعة الهندسي الدائري. وينتج جهاز الغزل هذا نوعين من هذه الخيوط الحريرية: نوعاً جافاً لا مرونة فيه وهو لإقامة الهيكل الذي يَعمد البيت، ونوعاً آخر لزجاً يلصق به كل ما يمسّه والذي تقع الضحية عليه من الحشرات غذاء للعنكبوت[1].

ويقف الإنسان العاقل المتأمل حائراً متسائلاً:

من عَلّم العنكبوت كيف تنسج؟ ومن علّمها الهندسة التي تصمم بها

(١) باختصار عن كتاب (في سبيل موسوعة علمية) للدكتور أحمد زكي.

بيتها؟ ومن علّمها ما يلزمها من خيوط لزجة وجافة وما تضمنهما من أهداف. والمغازل ليست كلها تنتج صنفاً واحداً فكيف درى العنكبوت بأن صنفاً اكتفى منه فأوقف مغزله، وأن آخر احتاجه فأطلق غدده لنسج خيوطه. هذه الأسرار في العنكبوت أدركها العلماء ورأوا فيها يد القدرة الإلّهية المبدعة، وصدق الله إذ قال في المثل الذي مثّله في العنكبوت ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي خلقهما الله بالعدل مراعياً لِلحِكم ومصالح العباد، فالحق دعامة من دعائم الكون التي قام عليها نظامه المعهود. وعلى الناس أن يعوا هذه الحقيقة فيجعلوا الحق هو الحكم بينهم، وما خرج قوم عن سبيل الحق إلاّ كان مصيرهم الخسران ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِلْمُؤمنينَ﴾ إن في ذلك لدلالة عظيمة وعلامة ظاهرة على قدرته وتفرده بالألوهية.

ثم يبيّن القرآن العلاج لتطهير النفس من آثامها والحؤول دون تدنيسها:

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٤٥).

فالله سبحانه يخاطب رسوله محمداً قائلاً: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي اقرأ ما أوحاه الله إليك من القرآن تذكراً لما فيه من العظات وعملاً بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب. وخطاب الله لرسوله محمد يشمل أيضاً كل مؤمن لتلاوة القرآن والاستفادة منه مما ذكر ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾ وإقامة الصلاة وهو الإتيان بها إتياناً كاملاً يحقق المقصود منها، وهو التوجه الكلي إلى الله والخشوع الحقيقي له وتوفية شروطها وأركانها والمحافظة

عليها في أوقاتها ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمنْكَرِ﴾ والفحشاء والفاحشة ما يشتد قبحه من الذنوب وكثيراً ما يراد بالفاحشة : الزنا . والمنكر : معاصي اللّه وما تستقبحه العقول السليمة من الأقوال والأفعال . فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة ومن ترغيب في طاعة اللّه وترهيب من معصيته، فإذا شرع المصلي في صلاته وخشع لربه وتذكّر أنه واقف بين يديه وأنه مطلع عليه ويراه، صَلُحت لذلك نفسُه وأصبح إيمانه قوة فعالة في حياته. وقد روي عن بعض السلف الصالحين أنه إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفرّ لونه. فكُلّم في ذلك فقال : إني واقف بين يدي اللّه تعالى وحق لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك .

﴿وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ﴾ أي لَذِكْرُ الإنسان ربه في الصلاة أكبر من الصلاة، فليس المقصود من الصلاة حركاتها من ركوع وسجود بل أكبر شيء وأهمه فيها ذكر اللّه واستحضار عظمته وتقديسه وتنزيهه عن صفات النقص ووصفه بصفات الكمال والجلال ﴿وَاللّه يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ واللّه يعلم ما تصنعون في صلاتكم من ذِكْرِ اللّه والقيام بأركانها فيجازيكم على ذلك أحسن الجزاء .

وقيل في معنى ﴿وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ﴾ أي ولذكركم اللّه أفضل من كل شيء، ولا شيء أفضل مِنْ ذِكرِ اللّه .

وقيل أيضاً في معنى ﴿وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ﴾ أي ذِكْرُ اللّه إياكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذِكْرِكُم إياه، لأن المؤمن إذا ذَكَرَ اللّه ذَكَرَهُ اللّه فيمن عنده من الملائكة، وذِكْره بلطفه ورحمته وإفاضة الهدى عليه، ولهذا يقول تعالى : ﴿فَاذْكُرونِي أَذْكُرْكُم﴾ .

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

شرح المفردات

أهل الكتاب : اليهود والنصارى .
ونَحْنُ له مُسلمون : ونحن له خاضعون .
لارْتَابَ المبْطِلُون : لدخل الشك قلوب أهل الباطل .
يجحد : يكفر وينكر .
شهيداً : عالماً مطلعاً .

تابع سورة العنكبوت

ثم ينتقل القرآن إلى بيان الأدب في مجادلة اليهود والنصارى مثنياً على الذين آمنوا منهم :

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُم وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٤٦ ـ ٤٧) .

فالله سبحانه يقول : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ والمجادلة هي المناقشة والمناظرة والمنازعة في الرأي ، وقد يكون الجدال بالباطل ليصرف عن الحق ، وقد يكون بالحق ليدحض الباطل وهو المقصود هنا . وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى وسماهم الله أهل الكتاب لأنه سبحانه أنزل عليهم التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي لا تجادلوهم إلا بالخصلة التي هي أحسن الأساليب ، وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى الله بما فسّرته الآية التالية ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فمجادلتهم تكون بالكلام الليّن المدعوم بالبراهين والحجج رجاء إقناعهم بالإسلام ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بأن أفرطوا في الاعتداء والغدر وتهجموا على الإسلام وتعدوا حدود الله فإنهم يجادلون بأسلوب صارم يبيّن فساد ادعاءاتهم ، ويظهر موطن جهالتهم ، والضلال الذي خالط دينهم ، ويعاملون بالطريقة التي تردعهم عن ظلمهم .

فالمجادلة بالتي هي أحسن هي مظهر من تسامح الإسلام ، وتطور في المفهوم الديني ، بينما كانت الجماعات الدينية في القرون الوسطى وما بعدها تستعمل جميع طرق الإكراه مع مخالفيها في الدين ، ولا تسمح

لرأي مخالف في مجادلتها وإلّا أصبح في غياهب السجون .

﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي قولوا أيها المسلمون لأهل الكتاب : آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا وبالتوراة والإنجيل اللذين أنزلا إليكم . وقد روي أن أهل الكتاب كانوا يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال محمد ﷺ : «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم»[1] .

﴿وإلَهنا وَإلَهكم وَاحد﴾ ومعبودنا ومعبودكم واحد وهو الله الواحد الأحد ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ونحن له خاضعون متذللون بالطاعة فيما أمرنا ونهانا عنه .

فاجتماع هذه الديانات الثلاث على هدف واحد وهو عبادة الله وحده من شأنه أن يُقرّب بين هذه الديانات وأن ينزع عن أتباعها نزعة التباغض والتشاجر في الدين .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي كما أنزلنا الكتب الإلّهية على الأنبياء أنزلنا إليك يا محمد القرآن ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهم الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ فالذين آتاهم الله الكتب المنزلة من عنده ممن سبقوا محمداً زماناً[2] من المؤمنين والأنبياء يؤمنون بهذه الكتب ويعملون بها ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ ومن أهل الكتاب على عهد الرسول محمد من يؤمن بأن القرآن وحي إلّهي كعبد الله بن سلام وكان من أحبار اليهود وغيره من اليهود ، وكذلك من آمن من قريش والعرب وغيرهم ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ أي وما ينكر آيات القرآن أو الحجج والأدلة على وحدانية الله ونبوة محمد ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ إلّا

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٢) وقد يكون المراد هم أهل الكتاب الذين عاصروا النبي ﷺ .

القوم المصرون على الكفر، هذا وإن الجحود لا يكون إلّا بعد المعرفة.

ثم يقدم القرآن دليلاً على نبوة محمد وهو أنه أُمّي لا يقرأ ولا يكتب، وبالرغم من ذلك فقد جاء بكتاب لم يستطع الأولون والآخرون مجاراته في فصاحته وهديه وهو شاهد على نبوته:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بيمينِكَ إذاً لارْتَابَ الْمبطِلُونَ. بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ في صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (٤٨ ـ ٤٩).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي وما كنت تقرأ من كتاب قبل نزول القرآن عليك يا محمد لأنك أُمّي ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ وما كانت عادتك أن تكتب بيدك اليمنى لأنك لا تجيد الكتابة ﴿إذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ولو كنت تحسن القراءة والكتابة لشكّ أهل الباطل في أن القرآن من عند اللّه.

سمع العرب هذه الآية التي تذكر أمية محمد ﷺ وأنه لا يجيد القراءة والكتابة، وكان كثير منهم يناصبونه العداء، فلو كانوا يعلمون أن محمداً يجيد القراءة والكتابة لكان لهم السبيل إلى نفي قوله ولقامت لهم الحجة على تكذيبه في أقوى برهان.

ثم لنفرض جدلاً أن النبي ﷺ تعلم القراءة والكتابة فإن التعلم يحتاج إلى زمن طويل ولا يتم في الخفاء ولو كان الأمر كذلك لاشتهر بين العرب أن محمداً يتعلم العلوم من فلان والعلوم الموجودة في القرآن كثيرة وتعلمها لا يحصل إلّا إذا كان المعلم في غاية المعرفة، فلو حصل أن في العرب إنساناً بلغ من العلم هذا المبلغ لكان مشاراً إليه بالبنان ولاضطر النبي ﷺ إلى تقديمه إلى أصحابه ولفاه المعلم لبعض الناس بذلك كما هو معهود وهذا

ما لم يحصل قط، هذا مع العلم أن القرآن كان ينزل متتابعاً حسب الوقائع والحوادث التي تجري، فلم يقدم محمد القرآن إلى قومه مكتوباً جملة واحدة كما يفعل الكُتّاب في مؤلفاتهم التي يشبعونها مراجعة وتنقيحاً. فأمية محمد ﷺ والطريقة التي نزل بها القرآن برهان قاطع على أن القرآن وحي إلّهي، وبالأخص ما اشتمل عليه القرآن من التشريعات العادلة المخالفة لعادات العرب. وما أتى به من الحِكَم والآداب والعبادات والعقائد وأخبار الأنبياء والأمم الماضية، وأنباء غيبية تحققت.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ في صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ أي بل القرآن هو آيات واضحات الإعجاز محفوظة في صدور المؤمنين الذين آتاهم اللّه العلم، ووصفهم اللّه بالعلم لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام اللّه وكلام البشر.

وقيل الضمير ﴿هو﴾ عُني به محمد أي أن وجود صفة محمد في التوراة وأنه لا يقرأ ولا يكتب هي دلائل واضحة على صدق نبوته في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب الذين صدقوا بنبوته[1].

---

(١) جاء في كتب أهل الكتاب مبشرات عن نبي سيأتي لا يقرأ ولا يكتب تنطبق صفاته على النبي محمد نذكر أحدها. «ففي الفصل الثامن من تثنية الاشتراع من التوراة: (١٧) فقال لي الرب قد أحسنوا فيما قالوا (١٨) أُقيم لهم نبياً من بين إخوتهم مثلك وألقي كلامي في فيه فيخاطبهم بجميع ما آمره به».

وقع في هذه البشارة بأن الرب سيقيم لبني إسرائيل نبياً من بين إخوتهم وهو دليل على أنه ليس من بني إسرائيل، فلفظ إخوتهم مقصود به أبناء إسماعيل بن إبراهيم الذين منهم محمد ﷺ بينما بنو إسرائيل ينحدرون من إسحٰق بن إبراهيم عليه السلام. ولفظ ﴿مثلك﴾ معناه أن الرب سيقيم لهم نبيًّا مثل موسى، فموسى صاحب كتاب وشريعة ومحمد مثل موسى صاحب كتاب وشريعة أتمها. ووقع في هذه البشارة لفظ ﴿وأُلقي كلامي في فيه﴾ وهو إشارة إلى أن ذلك النبي الذي ينزل عليه الوحي هو أُمّي لا يعرف الكتابة بل حافظاً للكلام وهذا ما ينطبق على صفات رسول الله محمد ﷺ.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أي فما ينكر القرآن بأنه كلام الله وينكر نبوة محمد إلّا القوم الظالمون الذين تجاوزوا حدود الحق.

وبعد أن بيَّن القرآن دليلاً على نبوة محمد مستقى من أميته أردف بذكر دليل آخر وهو القرآن الذي أُنزل عليه والذي هو معجزة تفوق معجزات الأنبياء:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنوا بِالبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ (٥٠ ـ ٥٢).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي وقال المشركون من قريش: هلاّ أُنزل على محمد معجزات من ربه تكون حجة لله علينا، كما جعلت معجزة الناقة للنبي صالح، ومعجزة المائدة للنبي عيسى، ومعجزة العصا للنبي موسى ﴿قُلْ إِنَّما الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قل يا محمد إنما المعجزات عند الله لا يقدر على الإتيان بها غيره ينزلها على من يشاء من عباده ﴿وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وقل لهم: ليس لي أن أقترح على الله شيئاً ليس هذا من شأني ولا من أدبي إنما أنا نذير أُخوِّفكم من عقاب الله لكم على كفركم وأوضح لكم ما ينبغي أن تعملوه.

﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ(١) أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي أَقَصُرَ نظر المشركين ولم يكفهم من المعجزات التي اقترحوها وطالبوا بها: هذا القرآن

(١) أو لم يكفهم: كلام مستأنف من جهته تعالى رداً على اقتراحهم. والهمزة للإنكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام. أي أَقَصُرَ نظرهم ولم تكفهم معجزة القرآن.

الذي يُقرأ عليهم؟ إنه المعجزة التي تحديتَهم بها، فقد أمرك الله يا محمد بأن تطالبهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، بل بعشر سور من مثله، بل بسورة من مثله ولكنهم عجزوا أمام هذا التحدي وقامت الحجة عليهم، ولو أتيتهم بمعجزات شبيهة بمعجزات الأنبياء لما آمنوا.

فمعجزة محمد هي القرآن فهي أعلى وأظهر من كل معجزات الأنبياء السابقين. فمعجزات الأنبياء رآها الذين عاصروهم من قومهم، أما معجزة القرآن فرآها وسمعها الذين عاصروا محمداً ورآها ووعاها جميع شعوب العالم من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فالقرآن هو الكتاب المعجز للبشر بأسلوبه وفصاحته وهدايته وتشريعه، وما اشتمل عليه من أنباء غيبية تحققت ومن إشارة إلى حقائق علمية توصل الإنسان إلى اكتشافها بعد قرون كثيرة من نزول القرآن. ألا يكفي الذين ينشدون المعجزات لإيمانهم أن يتأملوا في القرآن ويدرسوا ما فيه عن تجرد وإخلاص فيرون فيه كل حقائق الوجود فيدخل الإيمان في قلوبهم عن اقتناع ويقين بأن القرآن كلام الله وأن محمداً رسول الله.

هذا وقد ورد في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «ما من الأنبياء من نبي إلّا قد أُعطي من الآيات «المعجزات» ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً ـ أي القرآن ـ أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة (١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في إنزال القرآن عليك يا محمد لرحمة بهم وبالأجيال من بعدهم وتذكرة نافعة للحق والخير لقوم شأنهم أن يؤمنوا إذا توضحت لهم سبل الهداية.

(١) أخرجه الشيخان.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ أي قل يا محمد للمكذبين بنبوتك كفى بالله شهيداً ورقيباً بما جرى بيني وبينكم لأنه يعلم المحق منا من المبطل ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوات وَالأَرض﴾ فهو سبحانه مطلع على أمري وأمركم لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض ﴿وَالَّذِين آمَنُوا بِالبَاطِلِ﴾ والذين آمنوا بوجود شركاء لله وعبدوهم ﴿وَكَفَروا بـاللَّهِ﴾ وجحدوا وحدانية الله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ أي الخاسرون يوم القيامة حيث سيحاسبهم الله على أعمالهم ومعتقداتهم الباطلة.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ

شرح المفردات

بَغْتَةً : فجأة.

يَغْشَاهُمُ العذاب : يغطيهم ويحيط بهم.

لَنُبَوِّئَنَّهُم : لننزلنّهم.

دابة : كل ذي حياة يدب على وجه الأرض عقل أو لم يعقل.

فَأَنَّى يُؤفكون : فكيف يصرفون عن توحيد الله.

وَيَقْدِرُ له : ويضيق الرزق على من يشاء.

الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ
الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا
آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا
وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ
(٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ
أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

شرح المفردات

لَهِيَ الحيوان: لهي الحياة الدائمة التي لا زوال لها.

الفلك: السفن. (للمذكر والمؤنث والمفرد والجمع).

مُخلصين له الدِّين: مخلصين لله الدعاء لا يدعون معه غيره.

حَرَماً آمناً: أي مكاناً حرم الله على الناس أن يدخلوه بغارة أو حرب.

يُتَخطَّفُ الناس: يُسلب الناس من حولهم ويسبي بعضهم بعضاً.

لنَهديَنَّهم سُبُلَنا: لنوفقنهم إلى طرق الوصول إلى مرضاتنا.

تابع سورة العنكبوت

ثم يبين القرآن استعجال المشركين لعذاب الله الذي أنذرهم به النبي استهزاء به وتكذيباً له:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ. يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٣ ـ ٥٥).

فهؤلاء المشركون يستعجلون العذاب الذي أنذرهم به رسول الله استهزاءً به وتكذيباً، وقد كانوا يقولون كما نقل عنهم القرآن: ﴿اللهم إن كَانَ هَذَا هُوَ الحق مِنْ عِندك فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجارة مِنَ السَّماءِ أو ائْتِنَا بِعَذابٍ أليم﴾ ولكن الله يردّ عليهم بقوله: ﴿وَلَوْلا أَجَلٌ مُسمًّى لَجَاءَهُمُ العَذَابُ﴾ أي ولولا وقت محدد قدره الله لهلاكهم لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ ولجاءهم العذاب الذي يستحقونه بذنوبه فجأة حال كونهم لا يعلمون بوقت مجيئه.

ثم كرر القرآن استعجالهم للعذاب للتأكيد على عنادهم: ﴿يَسْتَعْجِلُونَك بِالعَذَابِ﴾ أي في الدنيا وهذا تعجب من تعنتهم وإصرارهم على الكفر ﴿وإن جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكَافِرِين﴾ أي وكيف يستعجلون العذاب والحال أن جهنم محيطة بهم يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العَذَابُ مِنْ فَوْقِهِم وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي يوم يغطيهم عذاب النار ويغمرهم من جميع جهاتهم ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُم تَعْمَلُونَ﴾ القائل بذلك هو الله سبحانه أو بعض ملائكته بأمره تعالى أي ذوقوا عاقبة ما كنتم فيه من الكفر وما كنتم

تقترفونه من المعاصي، يقال لهم ذلك على سبيل الإهانة والتوبيخ،وهذا عذاب معنوي بجانب العذاب الحسي.

وبعد الكلام عن المشركين بالله وما سيقاسونه من عذاب في الآخرة يخاطب الله المؤمنين الذين يتعرضون للفتنة في دينهم والاضطهاد من أعدائهم، يدعوهم إلى ترك أوطانهم في نداء مشبع بالقربى منه، مطمئناً لهم بتوفير الرزق لهم:

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ. كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ. الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ. وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ (٥٦ - ٦٠).

فالله سبحانه يقول: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أضاف الله المؤمنين إليه مع خطابه لهم تشريفاً وتكريماً ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ إن أرض الله واسعة لا تضيق بأحد، فإذا لم تتسهّل لكم العبادة في بلد فهاجروا إلى بلد يتسنى لكم فيه ذلك. وكذلك يجب على كل من كان في بلد يُعمل فيه بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أو يخاف الفتنة على نفسه وأهله أن يهاجر إلى بلد يأمن فيه من الفتنة ويعبد الله فيه بسلام فالأرض كلها أرض الله.

فالذي يحرص على رضاء ربه وتربية ذريته تربية صالحة عليه أن يختار البلد والمكان الصالح الذي يستقر فيه إذا كان يملك القدرة على ذلك، لأن البلد الذي تكثر فيه الفواحش والمنكرات ويشيع فيه الظلم والفساد ينعكس سلباً على ساكنه ويصرفه عن طاعة الله وعبادته، ويصبح العيش فيه لوناً من ألوان العذاب.

والغاية كلها من مغادرة الأوطان عند استفحال الظلم والفساد هو فسح المجال لعبادة الله لأنها غاية وجود الإنسان على الأرض كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.

فالله سبحانه خاطب المؤمنين في الآية السابقة بقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ أي يا من عبدتموني في الماضي اعبدوني في المستقبل، ويا من تعبدني أخلص العمل لي ولا تعبد غيري.

فكل وقت يفوت من عمر الإنسان لا يعبد الله فيه هو خسارة وندم يصاحبه يوم القيامة ولذا يذكّر الله الإنسان بأن العمر فائت والمرجع إلى الله ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له بدّ من عبادة ربه وطاعته والتزود للآخرة بصالح الأعمال، فكل إنسان في سفر إلى الدار الآخرة مهما طال لبثه في الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والذين صدقوا بالله وكتبه ورسله وعملوا بما أمرهم الله فأطاعوه وانتهوا عمّا نهاهم عنه ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾ أي لننزلنهم أعالي الجنة ولنسكننهم منازل رفيعة فيها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ تجري من تحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها إلى غير نهاية ﴿نِعْمَ أجر العاملين﴾ نِعْم جزاءُ العاملين بطاعة الله ﴿الَّذِين صَبَرُوا﴾ الذين صبروا على أذى المشركين في الدنيا وعلى العمل بطاعة الله وما يرضيه ﴿وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُون﴾ وعلى الله يعتمدون في جميع أمورهم ويفوضون الأمر إليه في أرزاقهم وجهاد أعدائهم ثقة منهم بأن الله مُعلٍ كلمته، وأن ما قسم لهم من الرزق فلن يفوتهم.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ كأيّن: اسم يفيد الكثرة، أي وكثير من دواب الأرض لا تستطع أن تدّخر شيئاً لغد ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ الله

يرزق تلك الدواب الضعاف كما يرزقكم أيها الناس، فلا تخافوا الفقر فإنه سبحانه يرزقكم إذا هاجرتم من بلدكم كما يرزق كل مخلوق على وجه الأرض ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ وهو السميع لأقوالكم العليم بما في أنفسكم وما إليه صائر أمركم لا يخفى عليه شيء من أمور خلقه.

فالنبي ﷺ لما أمر المسلمين بالهجرة من مكة خافوا الفقر فكان الرجل منهم يقول: كيف أقدم على بلدة ليست لي فيها معيشة فنزلت هذه الآية.

وقد كان المشركون العرب يعتقدون بأن الله خالق الكون ولكنهم كانوا يشركون بعبادة الله الأصنام والأوثان فأراد القرآن أن يُبيّن بطلان عبادتهم للأصنام والأوثان بحجة منتزعة من اعترافاتهم كما نراه في الآيات التالية:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ. اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (٦١ - ٦٣).

والمعنى: ولئن سألتَ يا محمد هؤلاء المشركين بالله من قومك من خلق السموات والأرض فسوّاهن، وذلّل الشمس والقمر لمصالح العباد فسيقولون: إنه هو الله ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف يصرفون عن توحيد الله ويشركون به غيره في العبادة مع إقرارهم بأنه خالق السموات.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الله يوسع رزقه لمن يشاء من خلقه ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ويضيق الرزق ويقتره لمن يشاء منهم، فأرزاق العباد بيد الله وحده فلا تخصوا غيره في العبادة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إن الله عليم بمصالح العباد ومن يصلح له البسط في الرزق، ومن لا يصلح له إلاّ

التقتير عليه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله من نزّل المطر من السحاب ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ فأحيا الله الأرض بهذا المطر بعد أن أصابها القحط والجفاف فأنبتت صنوف النبات ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فسيقولون: إن الذي فعل ذلك هو الله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعقلون ما فيه النفع لهم من أمر دينهم وما فيه الضرر لهم.

فإذا كان الله خالق كل شيء وأصنامهم لم تخلق شيئاً بل هي من صنع أيديهم فلِمَ يخصونها بالعبادة. أمور منطقية عرضها القرآن على عقول المشركين ليرجعوا عن ضلالهم ويثوبوا إلى رشدهم ويؤمنوا بأن الله وحده هو الجدير بالعبادة.

وبعد أن بيّن القرآن اعترافاتهم بأن الله خالق كل شيء بيّن أن أسباب تركهم عبادته هو انغماسهم بشهوات الدنيا الزائلة وغفلتهم عن الآخرة، ولكن عند الشدة يلجأون إلى الله وحده مستغيثين به:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤ - ٦٦).

فالقرآن يعلن بأن الحياة الدنيا ما هي إلاّ لعب ولهو إذا قيست بالآخرة فهي كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون، وما هي إلاّ ساعات لهو تنقضي.

فهذا الوصف الذي أطلقه الله على الدنيا هو تصغير لأمرها، وازدراء لها، وبيان لسرعة زوالها عن أهلها، ومفارقتها لها بالموت ﴿وَإِنَّ الدَّارَ

﴿الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ﴾[1] والدار الآخرة هي الحياة الباقية الخالدة التي لا موت فيها ﴿لَوْ كَانوا يَعْلَمُونَ﴾ جواب لو محذوف، أي لو كانوا يعلمون حقيقة ذلك لما آثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا في الفُلْكِ﴾ فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة في البحر وطغت الأمواج فخافوا الغرق والهلاك ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ توجهوا إلى اللَّه وحده مخلصين له الطاعة والعبادة، وانقادوا لفطرتهم التي تشهد بوحدانية اللَّه فلم يستغيثوا بأصنامهم وأوثانهم ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُم إلى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فلما نجّاهم من الغرق ووصلوا إلى البر سارعوا بالعودة إلى الإشراك باللَّه ﴿لِيَكفروا بِمَا آتَيْنَاهُم﴾ لكي يجحدوا نعمة اللَّه التي أنعمها عليهم في أنفسهم وأموالهم ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾[2] ولكي يتمتعوا بما يرضي هواهم في هذه الحياة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُون﴾ فسوف يعلمون عاقبة كفرهم حينما يشاهدون العذاب الأليم.

ثم يذكّر القرآن المشركين بنعمة اللَّه عليهم حيث يعيشون حول البيت الحرام في مكة آمنين لا يمسهم الناس بسوء بينما الناس حولهم يتقاتلون ويسبي بعضهم بعضاً. والبيت الحرام هو أول بيت وضع لعبادة اللَّه وحده بناه إبراهيم عليه السلام بوحي من اللَّه. وقد حرّم اللَّه انتهاك البيت الحرام وجعله مقدساً ومن دخله كان آمناً، وظلت هذه القداسة معمولاً بها طوال

---

(١) الحيوان: الحيوان والحياة بمعنى واحد، والحيوان مصدر حي سمي به كل ذي حياة، والحيوان أصله حييان فقلبت الياء الثانية واواً لكسر ما قبلها وجاءت على مصدر فعلان لأنه يدل على الحركة والاضطراب كالغليان والطوفان، والحي كثير الاضطراب والحركة، ولذلك اختير لفظ حيوان على لفظ حياة مبالغة في معنى الحياة.

(٢) قرئت ﴿وليتمتعوا﴾ بسكون اللام بمعنى لام الأمر على وجه الوعيد والتوبيخ أما القراءة بكسر اللام فهي بمعنى لام كي.

العهود عند العرب، فلا يقتل ولا يسلب ولا يُسبى من يسكن حول البيت الحرام:

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ (٦٧ ـ ٦٨).

والمعنى: أعموا ولم يَرَ هؤلاء المشركون من قريش ما خصصناهم به من نعمتنا عليهم دون سائر عبادنا فيشكرونا على ذلك، وينزجروا عن كفرهم بنا فقد جعلنا بلدهم مكة ﴿حَرَماً آمناً﴾ أي حرّمنا على الناس انتهاكه والدخول إليه بغارة أو حرب ويأمن فيه من سكنه من السباء والخوف والقتل ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ بينما تسلب الناس من حولهم ويقتل ويسبي بعضهم بعضاً ﴿أَفَبِالبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بألوهية الأوثان يقرون ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرونَ﴾ وبنعمة اللَّه التي أسبغها عليهم من إنزال القرآن وإرسال محمد هادياً لهم يجحدون.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي لا أحد أظلم ممن عبد غير اللَّه وكذب بالقرآن واختلق على اللَّه كذباً من الناس الذين قالوا إذا فعلوا فاحشة: وجدنا عليها آباءنا واللَّه أمرنا بها. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أو كذب بما جاء به رسول اللَّه محمد من الهدى ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مثوى لِلْكَافِرِينَ﴾ أليس في النار مستقر ومسكن لمن كفر باللَّه وجحد توحيده وكذّب رسوله محمد فيما جاء به من عند ربه، والاستفهام هنا تقرير، أي أخبر اللَّه أن للكافرين مسكناً في النار.

ثم يأتي ختام السورة منسجماً مع مطلعها الذي جاء الكلام فيه عن

الامتحان الرباني للمؤمنين ليظهر الصادق منهم في إيمانه من الكاذب منهم :

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٩) .

والجهاد في الآية يحتمل قتال الكفار الذين يحاربون المسلمين، ويحتمل نصرة دين الإسلام، والدعوة إليه، والدفاع عنه بالمال والكتابة والوعظ، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوقوف في وجه الظلم والظالمين، أو مجاهدة النفس الأمّارة بالسوء وحملها على طاعة اللّه وعدم الانجراف في معصية اللّه. والمراد بقوله تعالى: ﴿جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي في طلب مرضاتنا ومن أجلنا.

فالجهاد في سبيل مرضاة اللّه يحتاج إلى تضحية وصبر ولكن ما يبذله الإنسان في سبيل مرضاة ربه لا يذهب سُدًى كما قال سبحانه ﴿لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنَا﴾ أي لنوفقنّهم لإصابة الطرق المستقيمة التي توصل إلى مرضاتنا ونزيدهم هداية إلى سبيل الخير والثواب. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وإن اللّه مع المؤمنين بالتأييد والعون والنصرة لمن أحسنوا أعمالهم في سبيل مرضاة ربهم، هذه المعية من اللّه للمؤمنين المجاهدين هي أثمن عطاء في الوجود، ومن كان ربُّ العالمين معه فقد ملك كل مقومات السعادة في الدنيا والآخرة وانتفت عنه كل أنواع الخوف والقلق والحزن.

سُورَةُ الرُّومِ

سميت هذه السورة بسورة الروم لأن اللّه ذكر فيها نبأً غيبيًّا وهو أن دولة الروم ستنتصر على دولة الفرس في بضع سنين بعد أن مُنيت بالهزيمة أمام الفرس. وقد تحقق هذا النبأ الغيبي مما يظهر معجزة للقرآن بالإضافة إلى معجزاته الكثيرة.

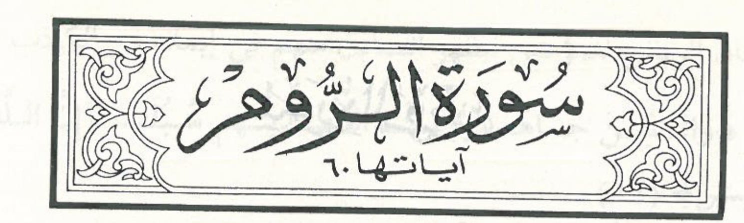
ودعت هذه السورة الناس إلى التفكر في أمر أنفسهم ليعرفوا مصيرهم لأن اللّه لم يخلق السموات والأرض إلّا بالحق، ومن الحق وجود حساب وجزاء بعد الموت، كما دعتهم إلى السير في الأرض والنظر في آثار الأمم البائدة التي أهلكها اللّه بسبب ذنوبها وتكذيبها لرسل اللّه، كما ذكرت السورة مصير المجرمين في الآخرة حيث يقاسون العذاب الأليم، بينما المؤمنون في جنّة اللّه يُنَعَّمُون وَيُكَرَّمُون.

كما دعت هذه السورة المؤمنين إلى تسبيح اللّه وعبادته آناء اللّيل وأطراف النهار مع بيان فضل اللّه عليهم، وعرضت السورة بعض الدلائل والبراهين على وحدانية اللّه واستحقاقه للعبادة.

وتدعو السورة إلى الإحسان إلى الأقارب والمساكين وابن السبيل لأن في ذلك قربى إلى اللّه تعالى.

وتبين السورة أن الفساد في الأرض عاقبته وخيمة وأن اللّه لن يترك المفسدين بلا عقاب على أعمالهم السيئة.

وتختتم السورة بالنصح للنبي ﷺ بأن يثبت على الحق ويصبر على ما يلقى من أذى قومه فإن وعد اللّه له بالنصر آتٍ لا محالة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ
﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾
وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾
يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾
أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ
إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾
أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا

شَرح المفردَات

أدنى الأرض : أقرب أرض كانت للروم بالنسبة لبلاد العرب.

غَلَبِهِم : اندحارهم وانهزامهم.

بضع سنين : فترة ثلاث إلى تسع سنوات.

أَجَلٍ مُسمًّى : وقت مقدر أزلاً لبقائها.

عاقبة : خاتمة ومصير.

أثاروا الأرض : حرثوها وقلبوها للزراعة.

وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا السُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ
اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم
مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ
السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ
فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآيِٕ الْآخِرَةِ فَأُولَٰٓئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

شَرح المفردَات

البيِّنات : جمع بيِّنة وهي الدلالة الواضحة عقلية كانت أو حسية كالمعجزات.

السُّوأى : العقوبة المتناهية في السوء.

تَقُومُ السَّاعة : تجيء القيامة.

يُبْلِس المجرمون : تنقطع حجتهم أو ييأسون.

شركائهم : أصنامهم ممن أشركوها بعبادة اللَّه.

في رَوْضَةٍ يُحْبرون : في جنة يُكَرَّمُون ويُسَرُّون.

محضرون : مقيمون لا يغيبون عنه.

سُورَةُ الرُّومِ

ايضاح و دروس

مطلع هذه السورة يشير إلى الصراع بين الروم والفرس، فقد اقتتل الروم وفارس فَهُزمت الروم[١]، فبلغ خبر هذه الهزيمة النبي ﷺ وأصحابه فشقّ عليهم أن يتغلب المجوسُ الوثنيون على أهل الكتاب من الروم، ففرح كفّار مكة وشمتوا بالمؤمنين وقالوا لهم: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب وقد تغلب أهل فارس على أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنهزمنكم فأنزل اللّه تعالى قوله:

﴿آلٓمٓ[١]. غُلِبَتِ الرُّومُ. في أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. في بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١ ـ ٦).

---

(١) في عام ٦١٤م استولى الفرس على أنطاكية أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للأمبراطورية الرومانية على يد كسرى أبرويز ثم على دمشق وحاصروا مدينة بيت المقدس إلى أن سقطت في أيديهم، وهذا النصر كان مبعث فرح للمشركين. ثم إن هرقل قيصر الروم الذي مني جيشه بالهزيمة لم يفقد الأمل في النصر فأخذ يعد نفسه لمعركة تمحو عنه عار الهزيمة حتى إذا كان العام ٦٢٢م (أي العام الهجري الأول) أرغم الفرس على خوض معركة على أرض أرمينية وكان النصر حليف الروم. ثم تتابعت انتصاراتهم مما اضطر الفرس إلى الانسحاب من جميع الأراضي الرومية المحتلة وهكذا تحقق وعد اللّه بانتصار الروم على الفرس. وثمة نبأ يفهم من سياق الآيات القرآنية كان مبعث فرح للمسلمين وهو انتصارهم على مشركي قريش في غزوة بدر التي وقعت من العام الثاني الهجري في الوقت الذي كانت تحصل فيه انتصارات الروم.

(٢) آلٓمٓ: راجع ما ورد عن هذه الأحرف الأبجدية في مطلع سورة العنكبوت.

عند نزول هذه الآيات خرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال: أفرحتم أن غُلبت الروم فإن نبينا أخبرنا عن اللّه تعالى أنهم سيغلبون فارس في بضع سنين فقام إليه أُبيّ بن خلف وغيره فقالوا لأبي بكر: يا أبا فصيل[١] يعرّضون بكنيته استهزاءً، فلنتراهن في ذلك فراهنهم أبو بكر ـ وكان ذلك قبل تحريم الرهان وجعلوا الرهان خمس قلائص[٢] والأجل ثلاث سنين ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال النبي ﷺ: «فهلّا احتطت فإن البضع ما بين الثلاث والتسع ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأجل». ففعل أبو بكر فجعلوا الرهان مائة قلوص والأجل تسعة أعوام فغلبت الروم فارس أثناء هذه المدة ففرح المؤمنون بهذا النصر.

فما أخبر به القرآن من هذا الأمر الغيبي الذي تحقق لدليل ساطع على أن القرآن وحي إلٓهي، فلو لم يتحقق ما وعد به القرآن من نصر الروم على الفرس لكان في ذلك تقويض الإسلام من أساسه بسبب دخول الريب إلى قلوب المؤمنين من صحة دينهم، ولكان للمشركين الذين يناصبون الإسلام العداء حجة قوية للتشكيك في نبوة محمد، ولسرى الشك إلى يومنا هذا ولكان لأعداء الإسلام الكثيرين في كل زمان حجة في الطعن بأن القرآن وحي إلٓهي.

فاللّه سبحانه يقول في الآيات السابقة: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ في أَدْنَى الأَرْضِ﴾ أدنى: أقرب. والأرض هي أرض العرب، أي غُلبت الروم في مكان أقرب ما يكون إلى أرض العرب، وكان ذلك في أطراف الشام، وقيل في الأردن أو فلسطين ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ والروم من بعد غلبة

---

(١) الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه.

(٢) القلائص: جمع القلوص، وهي الفتية من الإبل.

فارس إياهم سيغلبونهم وينتصرون عليهم ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ والبضع ما بين الثلاث والتسع سنوات ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي إن اللّه هو المنفرد بالقدرة وإنفاذ الأحكام حين غُلبت الروم من فارس، وحين يغلبونها، فهو يقضي في خلقه ما يشاء وهو القائل بما جاء في سورة آل عمران: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ[1] الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ وفي فترة انتصارات الروم على فارس انتصر المسلمون في معركة بدر على المشركين ففرح المؤمنون بهذا النصر المزدوج ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فمن شاء اللّه أن ينصره نصره، ومن شاء أن يخذله ويذله أذله، فلا يمكن لأحد أن يجزم بالنصر في حربه مع الآخرين، وإن كانت هناك بوادر تشير إلى رجحان الكفة بسبب جودة السلاح ووفرة الجند، ولكن في حالات كثيرة رأيناها في حروب الأمم أن النصر كان يأتي بحيث لم يكن متوقعاً ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وهو اللّه القوي الغالب المبالغ في الرحمة يصيب بها من يشاء من عباده ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ تأكيد لما وعد به من نصر الروم على الفرس ونصر المؤمنين على المشركين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون هذه الحقائق التي تشهد بأن القرآن وحي إلهي حيث أخبر بنصر الروم على الفرس ونصر

(١) إن الفرح الذي أصاب المؤمنين من انتصار الروم المسيحيين على الفرس المجوس، والذي بشّر به القرآن يوحي بهذه الرابطة الوثيقة التي تجمع بين المسيحية والإسلام، لأن الإسلام هو امتداد للأديان المنزلة: اليهودية والنصرانية، وهو مصدّق بأنبيائها وخاتمها ومكملها ومصلح لها، وهو الدين المقبول عند اللّه الذي لا يقبل غيره بعد نزوله. هذه الحقيقة يجب أن تعيها الأمم التي تدين بالمسيحية ويدفعها إلى دراسة الإسلام دراسة مجردة، ومد يد المعونة والمحبة إلى المسلمين لأن المسلمين ليسوا بأعدائهم فهم يفرحون بفرحهم ويسوؤهم ما يصيبهم من ضر، هذا إذا كانوا مسالمين صادقين في معاملتهم للمسلمين.

المؤمنين على المشركين وتحقق هذا الوعد الرباني.

ثم ينكر اللّه على المشركين الذين يكذبون بالبعث قصر نظرهم، واقتصار علمهم على ظاهر الحياة الدنيا وغفلتهم عن الآخرة:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ. أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (٧ ـ ٨).

إن كثيراً من الناس الذين أعرضوا عن هدى اللّه يعلمون ظاهراً من هذه الحياة الدنيا وهو ما يشاهدون من زخارفها والتمتع بملاذها وتدبير معايشهم فيها من زراعة وصناعة وتجارة وتحصيل علومها ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ هم لا يتفكرون في الآخرة ولا يعملون لها بما يرضي ربهم وينجي من عذابه من عبادة له وعمل صالح واستقامة، وابتعاد عن الخطايا.

ما أشد انطباق هذه الآية على عصرنا الحاضر فأكثر شعوب العالم طغت عليها النوازع المادية فاستسلمت للرغبات الجسدية وارتمت في أوحال الرذيلة فلم تلتفت إلى نداء الروح والتفكير الجدي لما بعد الموت ووجود حياة أخرى يحاسبون فيها على أعمالهم.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا[1] فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي أُطمِسَ على أعينهم وقلوبهم ولم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وما تحتويه أجسادهم من أسرار وبدائع الصنعة فيعلموا أن الذي فعل ذلك قادر على أن يعيدهم أحياء بعد موتهم وفناء أجسادهم خلقاً جديداً ﴿مَا خَلَقَ

(١) أو لم يتفكروا: الهمزة للإنكار عليهم داخلة على محذوف والواو معطوفة عليه، والتقدير: أعموا ولم يتفكروا.

اللَّهُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما خلق السموات والأرض وما بينهما من عوالم إلّا مقرونة بالجدّ مصحوبة بالحق ﴿وَأَجَلٍ مُسمًّى﴾ أي للسموات والأرض وقت تنتهي به إلى فناء وهو يوم القيامة ثم يبعث اللّه الناس أحياءً للحساب والثواب والعقاب. إن طبيعة هذا الكون بمخلوقاته قائم على الحق وعلى نظام دقيق محكم غاية الإحكام، ومن مقتضيات هذا الحق أن تكون هناك حياة أخرى يتم فيها الجزاء على العمل ويلقى الخير والشر جزاءه ﴿وَإِنَّ كثيراً من الناس بِلِقاءِ رَبِّهِم لكافِرونَ﴾ وإن كثيراً من الناس بلقاء اللّه وقيام القيامة لجاحدون، حيث يظنون أن الحياة الدنيا هي الغاية التي لأجلها يعيشون فلا حياة بعد الموت.

ثم يدعو القرآن إلى التأمل في أحوال الأمم السابقة وما كانت عليه من عز وسلطان ثم ما آلت إليه من دمار وهلاك بسبب سوء أفعالها وعصيانها أوامر ربها:

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٩ ـ ١٠).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيروا[1] في الأَرْضِ فَيَنْظُروا﴾ أي أَلَزِموا مساكنهم ولم يسيروا في أرجاء الأرض؟ بلى، إنهم ساروا في الأرض وشاهدوا ﴿كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كيف كان مصير وخاتمة الذين

(١) أوَلم يسيروا: الهمزة للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، والواو عاطفة عليه والتقدير: أَلَزِمُوا مساكنهم ولم يسيروا...

كانوا قبلهم من الأمم الذين أصابهم الهلاك والدمار جزاء تكذيبهم رسل اللّه واقترافهم سيئات الأعمال ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كانوا أقوى أجساداً من قريش ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ أي قلبوا الأرض للزراعة واستخراج الماء والمعادن والكنوز ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي عمروا ديارهم بفنون العمارات واستغلوا ما عمروه من زراعة وغرس وبناء أكثر مما قامت به قريش ﴿وَجَاءَتْهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ﴾ وجاءتهم رسل اللّه بالأحكام الشرعية والمعجزات الواضحة التي تشهد أنهم رسل اللّه حقًّا ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ في الكلام هنا حذف، أي كذبوا رسل اللّه فأهلكهم، فما كان اللّه ليهلكهم من غير جرم اقترفوه، وما كان اللّه ليعاملهم معاملة الظالم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ من حيث إصرارهم على الشرك باللّه بعبادة غيره وعصيانهم رسل اللّه واقترافهم المعاصي ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ ثم كانت عقوبة الذين عملوا السيئات ﴿السُّوأَىٰ﴾ هي تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، أي كانت عقوبتهم التي هي أقبح العقوبات في الآخرة وهي جهنم ﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾ وسبب تعذيبهم لأنهم كذَّبوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي شرائع اللّه المنزلة على رسله، أو المعجزات الظاهرة على أيديهم ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وكانوا برسل اللّه وما جاءوا به من الهدى يسخرون.

ثم يبين القرآن مصير الناس يوم القيامة حيث يعيدهم أحياء بعد مماتهم لمحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم:

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (١١ ـ ١٦).

فاللَّه سبحانه ﴿يَبْدَأُ الخلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي ينشىء خلق الناس ابتداءً ثم يعيد خلقهم بعد موتهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ثم إلى ربهم يحشرون للحساب والمجازاة على أعمالهم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ ويوم تجيء القيامة، وتأتي الساعة التي يحكم اللَّه فيها بين خلقه ﴿يُبْلِسُ المجْرِمُونَ﴾ ييأس الذين أشركوا باللَّه واكتسبوا سيِّىء الأعمال. وقيل في معنى يبلس: يسكتون وتنقطع حجتهم، وقيل: يفتضح ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُم مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ وشركاؤهم هم أصنامهم التي جعلوها شريكة للّه، أي ولم يكن لهم من أصنامهم وأوثانهم التي يعبدونها من غير اللَّه شفعاء يستنقذونهم من عذاب اللَّه ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِم كَافِرِينَ﴾ وكانوا في ذلك الوقت بآلهتهم التي جعلوها شركاء للّه جاحدين لها لعلمهم إذ ذاك أنها لا تنفع ولا تضر، أو بمعنى: وكانوا بسببها في الدنيا كافرين ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ ويوم تقع القيامة ويحل موعدها ويحشر فيها الخلق إلى اللَّه للمجازاة على أعمالهم يتفرق أهل الإيمان باللَّه، وأهل الكفر به، فأمَّا أَهل الإيمان فيؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأَما أهل الكفر فيؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ﴿فَأَمَّا الَّذِين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فأما الذين صدَّقوا بوحدانية اللَّه وصدَّقوا برسوله محمد وعملوا بما أمرهم اللَّه به من صالح الأعمال ﴿فَهُمْ في رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ والروضة كل أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة، والمراد بها الجنة التي وعد اللَّه بها عباده المؤمنين، وهم في الجنة ﴿يُحْبَرون﴾ أي يُسَرُّون، وقيل: يكرّمون وينعّمون ﴿وَأَمَّا الَّذِين كَفَروا وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا﴾ وأما الذين جحدوا وحدانية اللَّه، وأنكروا نبوّة محمد، وكَذَّبوا بما أُنزل عليه من آيات القرآن ﴿وَلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ وأنكروا وجود حياة أخرى بعد الموت يجازون فيها على أعمالهم ﴿فَأُولَئِكَ في العَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ فأولئك في عذاب جهنم مقيمون لا يغيبون عنها أبداً.

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ

شرح المفردات

فَسُبْحَانَ اللَّهِ : فسبِّحوا اللَّه وَصَلُّوا له.

حِينَ تُمْسُون : وقت حلول المساء.

وحين تُصبحون : وقت الصباح.

وَعَشِيّاً : بعد زوال الشمس وقبل المساء.

وحِينَ تُظْهرون : وقت الظهيرة.

ومن آياته : ومن العلامات والأدلة على وحدانية اللَّه وقدرته العظيمة.

وابتغاؤكم من فضله : وطلبكم والتماسكم من رزق ربكم.

بِأَمْرِهِۦٓ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن
مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ
كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم
مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

شرح المفردات

قانتون : مطيعون خاضعون.

لَهُ المَثَلُ الأَعْلَى : له الوصف الأعلى في الكمال والجلال.

مَلَكَتْ أَيمَانُكُم : ملكت أيديكم من العبيد والإماء.

تابع سورة الروم

وبعد أن بيّن القرآن مصير المؤمنين والكافرين في الآخرة، بيّن بعد ذلك الوسيلة للنجاة من العذاب والفوز برضوان اللّه وذلك بتمجيده وعبادته في أوقات مخصوصة من الليل والنهار:

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوات وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (١٧ ـ ١٨).

ومعنى ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي نزهوا اللّه عن صفات النقص، ومجّدوه وأثنوا عليه بالخير، وقيل المراد بالتسبيح هنا هو الصلاة لأن تنزيه اللّه وتقديسه يكون باللسان والقلب والجوارح، ولا شيء أجمع لذلك من الصلاة التي تشتمل على كل ذلك. وقد قيل لابن عباس رضي اللّه عنهما: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم وتلا هذه الآية. فمعنى قوله سبحانه ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أي نزّهوا اللّه ومجّدوه وصلوا له حين حلول وقت المساء والمراد بذلك القيام بصلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي ونزّهوا اللّه وصلّوا له وقت الصباح والمراد القيام بصلاة الفجر ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوات وَالْأَرْضِ﴾ وله الثناء والشكر من جميع خلقه من سكان السموات من الملائكة ومن سكان الأرض من المخلوقات، وهذه الجملة معترضة بين الكلام الداعي إلى تسبيح اللّه للإيذان بمشروعية الجمع بين تسبيح اللّه وحمده كما في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ثم أضاف اللّه قوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ والعَشِيُّ من زوال الشمس إلى الصباح، أي نزهوا اللّه وصلّوا له وقت العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ ونزّهوا اللّه وصلوا له حين تدخلون وقت الظهيرة والمراد بذلك القيام بصلاة الظهر.

ثم يبين القرآن أن هذا التسبيح يستحقه الله وحده الذي يحيي ويميت:

﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَيُحيي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (١٩).

فالله سبحانه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي[1]، هذه هي العملية المستمرة التي لا تقف لحظة في مسيرة الحياة، ففي كل لحظة ييبس نبات أو شجر ثم يتحول إلى حطام ومن خلاله توجد النوى المنبثقة عنه المتهيأة للحياة، وفي كل لحظة يفقس البيض عن طيور وأحياء مائية ثم يصيبها الردى بعد ذلك.

﴿وَيُحْيي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما أنه سبحانه يحيى الأرض بعد موتها بإنزال المطر عليها فتدب فيها الحياة، وينبت فيها أنواع النبات، فتخضرّ ساحاتها ويرتادها الطير والحيوان بعد أن كانت جافة قد يبس زرعها وهجرها كل حيوان﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي ومثل إخراج النبات من الأرض الميتة بواسطة المطر كذلك تخرجون ـ أيها الناس ـ من قبوركم أحياء يوم البعث، فالقادر على إخراج النبات من الأرض الميتة قادر على إخراجكم أحياء بعد مماتكم.

ثم يستعرض القرآن بعض الدلائل على ربوبية الله وحده، وقدرته العظيمة في خلقه للإنسان المتمثل في الرجل والمرأة لبقاء النوع عن طريق التزاوج:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُم بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ

(١) في جسم الحيوانات وحتى في جسم الإنسان تموت بعض الخلايا الحية أولاً بأول ولكن يجدد الجسم بناءها وسريعاً ما ينقل الدم الخلايا الميتة إلى أجهزة الإفراز لتخرج مع الفضلات وهكذا يخرج الله الميت من الحي.

فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٠ ـ ٢١).

أي ومن الدلائل والعلامات على ربوبية الله لهذا الكون ووحدانيته وأنه القادر على كل شيء ﴿أَن خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ﴾ أن خلقكم أيها الناس من تراب. فالله خلق أباهم آدم من تراب ثم نفخ فيه الروح، والفرع وهم الجنس البشري كالأصل. وقد يُراد أن تكوين الإنسان من تراب، لأن عملية تغذية الإنسان تحصل من النبات والحيوان، والحيوان مصدره النبات، فالنبات قوام الكائنات الحية والنبات مصدره التراب. ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُم بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ثم أنتم أيها الناس عقلاء ناطقون تتفرقون في الأرض فيما هو قوام معيشتكم وتحصيل أرزاقكم، وصُدّرت الآية بحرف (إذا) للمفاجأة حيث تحول التراب الساكن فجأة بقدرة الله إلى صورة الإنسان المتحرك العاقل بانتقال يثير التأمل في صنع الله ويحرك القلب لتمجيده وتعظيمه.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ أي ومن دلائل ربوبيته وكمال قدرته ورحمته أن خلق لكم ـ أيها الرجال ـ زوجات من جنسكم ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ لتطمئنوا إليها وتألفوها، فالسكينة التي تحصل من اجتماع الجنسين المتوافقين في شعورهما المشترك كل نحو الآخر تعطيهما طمأنينة وراحة نفسية بالغة القدر، وتحيطهما بجو من السعادة يفتقدها كل عازب. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي وجعل بينكم وبينهن حبًا وهوى وشفقة وتراحماً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن في ذلك لعبراً وعظات للذين يتفكرون في صنع الله الذي خلق كلاًّ من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر، يلبي رغباته النفسية والجنسية، فيعلمون أنه سبحانه هو الإله الذي خلق كل شيء وفق الحكمة، ولولا هذه الألفة والحب والتراحم في العلاقات الزوجية لما استمر بقاء النوع الإنساني على هذا الترابط المحكم.

فالقرآن يوضح بأن العلاقة الزوجية يجب أن تقوم على الاطمئنان

والأُلفة والحب والتراحم، هـذه الأمور هي التي تحفظ الحياة الزوجية من الزلل والاختلاف، وهذه الأمور هي التي تبني الأسر على أُسس متينة يظللها الوفاق والسعادة، ويوفر لها الاستمرار والديمومة، تـأمل كيف قـرنت الآية الحب بالرحمة، فالحب وحده لا يبني الحياة الزوجية ما لم يَقترن بالرحمة، والرحمة تستدعي التضحية والإيثار وانتفاء القسوة والعنف والأنانية في معاملة بعضهما البعض.

ويتابع القرآن تبيان مظاهر القدرة الإلٓهية في خلق السموات والأرض وبعض المظاهر الطبيعية وفي خلق الإنسان وما يتمتع به من صفات:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُم وَأَلْوَانِكُم إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلعَالِمِينَ. وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِالليلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢ - ٢٤).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي ومن علامات وحدانية اللّه وقدرته على البعث خلقه السموات والأرض، فالسموات وما فيها من بلايين النجوم والكواكب والتناسق العجيب بينها مما يحفظها من التصادم، وما بينها من مسافات وأبعاد يظهر عظمة القدرة الإلٓهية، وكذلك الأرض وما تحتويه من جبال ووديان وسهول وأنهار وبحار وملايين المخلوقات البرية والبحرية كل ذلك علامة من علامات القدرة الإلٓهية العظيمة القادرة على كل شيء ﴿واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُم﴾ والألسنة يحتمل معناها اللغات المنتشرة بين البشر، أو أجناس النطق وأشكاله التي تختلف من شخص لآخر حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد

أو جهارة أو رخاوة أو شدة أو في كيفية ما ﴿وَأَلْوَانِكُم﴾ واختلاف الألوان يظهر ببياض الجلد واسوداده وتوسطه فيما بينهما أو في حمرة الجلد واصفراره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ للعَالِمِينَ﴾ أي إن في خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان دلائل على قدرة اللّه العظيمة يدرك العلماء أسرارها لما يرون فيها من عظمة وإبداع تشهد بوجود الخالق وقدرته على كل شيء، هذا وقد اكتشف العلم أن المورثة أو الناسلة الموجودة في خلية الإنسان هي التي تتحكم في اختلاف الألوان؛ وهذه المورثة على قدر كبير من الدقة والصغر بحيث لا ترى إلّا بأعظم المجاهر[١]، فهذه الصنعة الإلٓهية يقف العالِم أمامها خاشعاً مبهوراً من عظمة الإبداع الإلٓهي.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي ومن الدلائل على وحدانية اللّه وقدرته على بعث الناس أحياء بعد مماتهم يوم القيامة أنكم تنامون أيها الناس بالليل، وتنامون بالنهار في بعض الأحوال للاستراحة، وقيل في الكلام تقديم وتأخير على معنى: ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار، والمناسبة من ذكر النوم وطلب الرزق وجعلهما من جملة الأدلة على حصول البعث يوم القيامة هو أن النوم شبيه بالموت، وابتغاء الرزق والسعي إلى كسب العيش شبيه بالحياة بعد الموت ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ إن في ذلك لدلائل وعبر لقوم يسمعون حجج اللّه سماع تدبر وفهم فيتعظون بها.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ ومن الدلائل الباهرة على القدرة

(١) يقول العلامة كريسي موريسون في كتابة «الإنسان لا يقوم وحده» عن المورثة (Genes) المسببة للمخلوقات البشرية جميعاً التي على سطح الأرض من حيث خصائصها الفردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها أنها من الدقة بحيث لو جمعت كلها ووضعت في مكان واحد لكان حجمها أقل من حجم الكشتبان (قمع يغطي إصبع الخياط ليقيه وخز الإبرة).

الإلهية أن يريكم البرق فيكون ذلك خوفاً لكم من الصواعق وطمعاً في الغيث أو خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويحيي الله الأرض بالمطر النازل من السحاب[1] فينبت فيها أصناف النبات بعد أن يبس زرعها وغابت عنها معالم الحياة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن في ذلك لدلائل وعبر لذوي العقول الذين يستدلون بها على قدرة الله الباهرة.

ويتابع القرآن بيان قدرة الله العظيمة القادرة على بعث الناس أحياءً يوم القيامة:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ. وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ. وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٥ - ٢٧).

أي ومن الدلائل على القدرة الإلهية العظيمة قيام السماء والأرض واستمرارها على ما هي عليه، فلا تتصادم أجرام السماء وكواكبها، ولا تختل مظاهر الحياة على الأرض ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ ثم إذا دُعيتم إلى الخروج من القبور أحياء فوجئتم بالخروج منها بسرعة من غير إبطاء للجزاء والحساب وذلك حين ينفخ إسرافيل في البوق

(١) ما هي العلاقة التي تربط بين البرق ونزول المطر إلى الأرض وإحيائها بالنبات، وهل حياة الأرض ترتكز على الماء فقط؟ لا فهناك عنصر أساسي لنمو النباتات وهو غاز النتروجين (الأزوت) الذي بدونه في شكل ما لايمكن أن ينمو أي نبات. ومن الوسائل التي يدخل بها النتروجين إلى التربة الزراعية هي عواصف الرعد فكلما أومض برق وحد بين قدر قليل من الأوكسجين والنتروجين فيسقطهما المطر إلى الأرض كنتروجين مركب ويقدر أحد خبراء الصواعق أن إنتاج البرق من النتروجين يوازي عشرة أضعاف ما تنتجه معامل الأسمدة في العالم.

ويقول: يا أهل القبور قوموا فلا يبقى خلق من الناس من الأولين والآخرين إلا قاموا ينظرون ما يحل بهم. ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وله سبحانه الملك والتدبير والسيطرة على كل ما في السموات من ملائكة، وما في الأرض من إنسٍ وجن ومخلوقات ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ كل هؤلاء له منقادون مطيعون لا يمتنع عليه شيء من ذلك.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وهو الله سبحانه يبدأ الخلق من غير أصل فينشئه ويوجده بعد أن لم يكن شيئاً، ثم يفنيه بعد ذلك ثم يعيد خلقه كما بدأه بعد إفنائه ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي وهو أسهل وأيسر عليه، فبدء الخلق وإعادته سيان وهو القائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ولكن الله يخاطب الناس حسب إدراكهم ومفهومهم، ففي طبيعة الناس أن بدء الخلق أصعب من إعادته، فالإنسان مثلاً قد لاقى جهوداً مضنية وتجارب شتى في اختراع سيارة أو طائرة أو ساعة أو أية صنعة ما فإعادة صنعها هي أهون عليه من بدء اختراعها، فما بال المنكرين للبعث يرون إعادة الناس أحياءً بعد مماتهم عسيرة على الله بينما هي في طبيعتها أيسر وأهون.

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وله سبحانه الوصف الأعلى من القدرة الشاملة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال التي ليست لغيره منها ما يشبهها ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهو القوي الغالب في ملكه الحكيم في فعله وتقديره.

ثم ينتقل القرآن إلى نفي الشريك عن الله بأسلوب منطقي مقنع:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُم مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُم فَأَنْتُم فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُم كَخِيفَتِكُم أَنْفُسَكُم كَذَلِكَ

نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٨ ـ ٢٩).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُم﴾ أي بيَّن اللّه لكم مثلاً منتزعاً من طبيعة أنفسكم ﴿هَلْ لَكُم مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِنْ شُرَكَاءَ﴾ أي هل لكم مما تملكون من العبيد والإماء شركاء ﴿في مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي في ما أعطيناكم من الخير والأموال ﴿فَأَنْتُم فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فأنتم وعبيدكم شركاء متساوون في التصرف في أموالكم ﴿تَخَافُونَهُم كَخِيفَتِكُم أَنْفُسَكُم﴾ وأنتم في ذلك تخافون أن يقاسموكم ذلك المال، أو تخافون هؤلاء العبيد فلا تتصرفون في شيء مما تملكونه دون إذنهم كما يخاف الأحرار بعضهم بعضاً من مقاسمة الشريك شريكه المال الذي بينهما عند الفراق. فإذا كنتم أيها المشركون لا ترضون الشركة مع عبيدكم، فكيف رضيتم أن تكون آلهتكم التي تعبدونها شركاء للّه تتقاسم وإياه الملك مع أنها جماد لا تضر ولا تنفع.

فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة ـ والخلق كلهم عبيد اللّه ـ بطل بالأحرى أن يكون في الكون شريك للّه في ملكه وأفعاله ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي مثل ذلك التفصيل الواضح بضرب الأمثال نبين الآيات ونوضحها لقوم يستعملون عقولهم في تدبر الأمور فيعتبرون ويتعظون مما بيناه من حجج على وحدانية اللّه وانتفاء شريك له.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بل اتبع الذين كفروا أهواءهم التي ليس لها أساس من الصحة غير القائمة على علم ودليل ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ فلا أحد يهدي من أضله اللّه، ولا أحد يقدر على هدايته لأن الرشاد والهداية بتقدير من اللّه وإرادته، واللّه لا يهدي القوم الظالمين ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يخلّصونهم من الضلال ويحفظونهم من تبعاته وآفاته.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ

شرح المفردات

فأقم وجهك للدِّين: أخلص في دينك وعبادتك.

حنيفاً: مستقيماً عليه مائلاً عن الأديان الضالة.

فطرة اللّه التي فطر الناس عليها: صنعة اللّه التي خلق الناس عليها.

ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ: ذلك الدين المستقيم الذي لا عوج فيه.

منيبين إليه: راجعين إلى اللّه بالتوبة والإخلاص.

كانوا شِيَعاً: فِرقاً وأحزاباً متفرقة.

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِم فَرِحُون: كل جماعة منهم مسرورون بما ابتدعوا من مذاهب في الدين.

مَسَّ الناس ضرٌّ: أصاب الناس شدة من مرض أو فقر أو قحط.

سُلْطاناً: كتاباً فيه حجج وأدلة.

يَقْنَطُونَ: ييأسون من رحمة اللّه.

ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا
ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ
أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ
ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ
سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

شرح المفردات

يَقْدِرُ : يُضيِّق.

ابن السبيل : المسافر الذي ليس لديه من المال ما يكفيه للعودة إلى بلاده.

لِيَرْبُوا : ليزيد.

المضعفون : الذين تضاعف لهم الحسنات.

شُركائكم : المراد بها أصنامهم التي جعلوها شريكة لله.

سُبحانه : تنزيهاً له عن الشريك والزوجة والولد.

تابع سورة الروم

ثم يبين القرآن بأن الإسلام القائم على توحيد الله وعدم الإشراك به هو فطرة في النفس الإنسانية فيجب التزام هذا الدين وعدم التفرق والاختلاف فيه :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حنيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تبديلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. مُنيبينَ إلَيْهِ واتَّقوه وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ المشركينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكانوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِم فَرِحُونَ﴾ (٣٠ - ٣٢).

فالله سبحانه يخاطب رسوله محمداً ويشمل الخطاب أمته : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّين﴾ أي ابذل الهمة ظاهراً وباطناً في الدين وأقبل عليه، وقد مثل الله ذلك بإقامة الوجه فإن من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه وقوم له وجهه مقبلاً به عليه، وهذا كناية عن الإخلاص في التدين وعبادة الله وحده، والدين المراد به هو دين الإسلام ﴿حَنيفاً[1]﴾ أي مائلاً إلى الإسلام مستقيماً عليه موحداً لله غير ملتفت إلى غيره من الأديان المحرفة المنسوخة ﴿فِطْرَةَ[2] اللّهِ﴾ أي التزموا فطرة الله والفطرة في الأصل هي الخِلقة والمراد بها هنا الملة وهي الإسلام والتوحيد ﴿التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ التي خلق الله الناس عليها من معرفته وأنه لا إله غيره حيث أخرجهم الله سبحانه من ظهر أبيهم

(١) حنيفاً : الحنيف هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم وهي توحيد الله ومن كان على دين إبراهيم فهو حنيف لعدوله عن الشرك بالله. وقيل : الحنيف هو المسلم المخلص لله الذي أسلم أمره لله وكل من أسلم لأمر الله فهو حنيف، والحَنَفُ : هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة.

(٢) الفطرة : الخِلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه وتطلق على طبيعة الإنسان السليمة التي لم تُشَب بعيب.

آدم وسألهم: أَلَسْتُ بِرَبِّكم؟ قالوا: بلى[١] ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغير، أو بمعنى: لا تبديل لدين اللَّه، ويدل على ذلك قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ أي ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له هو الدين المستقيم الذي لا عوج فيه وهو دين الإِسلام ﴿وَلَكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون﴾ أي لا يعلمون أن الإنسان بفطرته يشهد بوحدانية اللَّه[٢] وأن الإسلام هو دين الفطرة.

فاللَّه خلق الناس بفطرتهم على الإسلام القائم على وحدانية اللَّه لكونه يتجاوب مع حاجات الروح ومتطلبات الجسد، حتى لو أن الناس تُركوا وشأنهم بدون أي مؤثر من البيئة أو العائلة لما اختاروا على الإسلام ديناً آخر، ومن ضلَّ عنه فبتأثيرات المجتمع ووساوس الشيطان ولهذا يقول النبي محمد ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوِّدانه أو ينصِّرانه»[٣]، كما يقول النبي ﷺ بما ينقله عن ربه «كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم (أي أدارتهم) الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري»[٤].

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إلى اللَّه بالتوبة من الذنوب مخلصين له العبادة ﴿وَاتَّقُوه وَأقيموا الصَّلاةَ﴾. وخافوا اللَّه بالقيام بطاعته واجتناب معصيته وحافظوا على الصلاة ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ المشركِينَ﴾ ولا تكونوا ممن أشرك باللَّه وعبد مع اللَّه غيره ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعاً﴾ من الذين

(١) جاء في سورة الأعراف ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُم عَلَى أَنْفُسِهِم أَلَسْتُ بِرَبكم قَالُوا بلى...﴾.

(٢) كشفت الدراسات الدينية الحديثة أن التدين صفة عامة لجميع البشر، وأن الاعتقاد بإله واحد هو عقيدة فطرية عند أكثر الشعوب قديماً وحديثاً.

(٣) متفق عليه.

(٤) أخرجه مسلم.

اختلفوا في دينهم وغيروا وَبَدَّلُوا في أُصوله وانحرفوا عن حقائقه كاليهود والنصارى فأصبحوا طوائف وأحزاباً ﴿كُلُّ حِزْبٍ[١] بِمَا لَدَيْهِم فَرِحُونَ﴾ كل طائفة وفرقة بما ابتدعته من الدين مسرورة به مبتهجة. فالقرآن يبين أن الاختلاف في الدين إثمه عظيم، يجعل الذين يختلفون في دينهم في مرتبة المشركين في الإثم والضلال، فالاختلاف في الدين يجعل أتباعه متباغضين متناحرين، بينما الدين لم يأتِ إلاّ لإرساء قواعد الوحدة والمحبة بين المؤمنين.

ويتابع القرآن فيقدم دليلاً على وحدانية اللَّه مستقى من الفطرة الإنسانية:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فريق منهم بِرَبِّهِم يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُروا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِم سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُون﴾ (٣٣ - ٣٥).

والمعنى: وإذا أصاب هؤلاء المشركين ضرٌّ من شدة وفقر ومرض وقحط دعوا اللَّه وحده واستغاثوا به تائبين إليه من ذنوبهم ليكشف الضر عنهم ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم[٢] مِنْهُ رَحْمَةً﴾ ثم إذا كشف ربهم عنهم ذلك الضر وأسبغ عليهم النعم والعافية ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم بِرَبِّهِم يُشْرِكُونَ﴾ إذا: للمفاجأة، أي سارع جماعة منهم إلى الشرك باللَّه بعبادة الأصنام والأوثان بعد أن كشف اللَّه عنهم الضر ﴿لِيَكْفُروا بِمَا آتَيْنَاهُم﴾ اللام الداخلة على يكفروا للتهديد، وقيل للعاقبة، أي لتكون عاقبة أمرهم أن يكفروا بما أعطاهم اللَّه من النِّعم

(١) الحزب: كل طائفة جمعها الاتجاه إلى غرض واحد.

(٢) عبّر القرآن عن الرحمة بالذوق وهي التي تقال في القليل من الطعام الذي يُختبر إشعاراً بأن الرحمة لهم ليست مستمرة بل لهم في الآخرة عذاب أليم وأن الرحمة غير مطلقة بل هي خاصة بذلك الضر وحده.

﴿فَتَمَتَّعُوا[1] فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي انتفعوا والتذوا بما طاب لكم من دنياكم أيها الذين أشركتم بالله فسوف تعلمون عاقبة كفركم.

﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِم سُلْطاناً﴾ أم: بمعنى بل والهمزة للاستفهام والإنكار، والسلطان هو البرهان والحجة من كتاب ونحوه، والمعنى: بل أأنزلنا عليهم كتاباً من السماء ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ وهذا الكتاب يشهد بصحة إشراكهم بالله، وإنما يعني الله سبحانه أنه لم ينزل عليهم كتاباً ولا أرسل رسولاً يؤيد صحة إشراكهم بل ما فعلوه ما هو إلّا بدعة وضلال اتباعاً منهم لأهوائهم.

ثم يصور القرآن طبيعة النفس الإنسانية أمام الرخاء والشدة:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيديهم إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٦ - ٣٧).

والمعنى: وإذا أصاب الله الناس رحمة منه من خصب ورخاء وعافية في الأبدان، ووفرة في الأموال، فرحوا بذلك ﴿وَإِن تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ﴾ وإن يصبهم شيء يسوءهم من قحط وبلاء في الأموال والأولاد ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم﴾ بما اقترفوا من المعاصي ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ رأيتهم ييأسون من الفرج.

هذه هي طبيعة أكثر الناس يفرحون بالنعمة حين تصيبهم فَرَحَ بَطِرٍ لا يشكرون عليها الخالق، حتى إذا شاء الله أن يعاقبهم بما اقترفت أيديهم

---

(١) هذا الالتفاف من الكلام عنهم غيباً ﴿ليكفروا﴾ ثم مخاطبتهم مباشرة بقوله: ﴿فتمتّعوا﴾ هو للمبالغة في التهديد والزجر لهم بما هم عليه من الكفر.

من سيّىء الأعمال يئسوا من فرجه غير مدركين حكمة الله في خلقه في أن الابتلاء بالشدة يجب أن يكون حافزاً لهم للإقلاع عن ذنبهم وتغيير ما بهم من سيّىء الأعمال.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم﴾ إيماءً بأن ما يصيب الإنسان من تعاسة وشقاء وضر وآفات في عقله وصحته هو بسبب سلوكه السيّىء وإفراطه في الفواحش وإدمانه على المعاصي والمحرمات، فليحرص الإنسان على أن يتحرى طريق الخير الذي أراده الله لعباده ليصل إلى ما يصبو إليه من سعادة وصحة في جسده وعقله. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ألم يعلموا أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده امتحاناً لهم ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق الرزق على من يشاء ابتلاءً لهم، وفي امتحان الله لعباده بالنعم وابتلائهم بتضييق الرزق عليهم يظهر الصادق منهم من الكاذب في إيمانه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في ذلك دلالة واضحة للذين يؤمنون بالله ويدركون حكمة الله في خلقه.

وإذا كان الله هو الذي يوسع الرزق على من يشاء من عباده لذا أمر الله الموسرين أن يوصلوا إلى الأقارب والفقراء كفايتهم من العيش:

﴿فَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِين يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ. وَمَا آتَيْتُم مِنْ رِباً لِيَرْبُوا في أَمْوالِ النَّاسِ فلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المضْعِفُونَ﴾ (٣٨ - ٣٩).

فالله سبحانه يخاطب رسوله محمداً والمؤمنين بأن يعطوا أقاربهم الفقراء حقهم من الصدقة والصلة والبرّ، وخير الصدقة ما كان على القريب ﴿وَالمسْكِينَ﴾ وهو الفقير الذي أخضعه ذل الفقر فَيُعْطَى أيضاً حقه من

الصدقة، وكذلك ﴿وابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المنقطع الذي لا مال له يكفيه للوصول إلى ما يقصد وهذا يُعْطَى من الصدقة ما يوصله إلى بلده. وقد أخذ الإمام أبو حنيفة من هذه الآية وجوب النفقة على أولي الأرحام ـ أي الأقارب ـ إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي ذلك الإنفاق على هؤلاء المحتاجين خير للذين يريدون بعملهم وجه اللّه والتقرب منه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ وأولئك هم الفائزون الظافرون بمطلبهم من الثواب في الآخرة والقربى من اللّه.

﴿وَمَا آتَيْتُم مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا في أَمْوالِ النَّاسِ﴾ قد يكون المراد هنا هو الربا المحرم وهو الاستدانة بفائدة فهذه الفائدة التي يأخذها الدائن هي من كبائر الإثم لا يبارك اللّه فيها لقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ والمعنى: وما أعطيتم أكلة الربا من مال ليزيد في أموالهم ﴿فلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فلا يزكو عند اللّه ولا يبارك فيه. وقد يكون المراد من الآية: هو أن يُعطي الرجل العطيَّة من المال أو الهدية يُريد أن يُعطى أكثر منها، أو يُكافأ عليها فهذا العمل لا يؤجر فيه صاحبه ولا إثم عليه، وعلى هذا يكون المعنى: وما أعطيتم أيها الناس بعضكم بعضاً من هدية أو عطية تطلبون المكافأة عليها بأفضل منها لتزيد في أموالكم فإن ذلك لا يقبله اللّه ولا يزيد في ثوابه لكم عنده لأنكم لم تقصدوا بهذه العطية وجه اللّه ﴿وَمَا آتَيْتُم مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وما أعطيتم من صدقة تريدون بها التقرب إلى اللّه ﴿فأولئك هُمُ المضْعِفُونَ﴾ فأولئك الذين تضاعف حسناتهم وثوابهم عند اللّه بعشر أمثالها وأكثر من ذلك.

ثم يبين القرآن بعض مظاهر القدرة الإلهية التي يختص بها وحده:

﴿اللَّهُ الَّذي خَلَقَكُم ثُمَّ رَزَقَكُم ثُمَّ يُميتُكُم ثُمَّ يحييكُم هَلْ مِن

شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٠).

فاللّه سبحانه يخاطب المشركين توبيخاً لهم: اللّه وحده الذي تصح العبادة له ولا ينبغي أن تكون لغيره، فهو الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً ثم رزقكم ما تقتاتون به وأعطاكم المال وما تتمتعون به في دنياكم ثم هو يميتكم من بعد أن خلقكم أحياء ثم يحييكم من بعد مماتكم يوم القيامة ﴿هَلْ مِنْ شُرَكائِكُم مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُم مِنْ شَيءٍ﴾ وشركاؤهم: المراد بها الأصنام التي كان يعبدها المشركون. وإنما أضاف اللّه الشركاء لهم لأنهم هم الذين كانوا يسمونها آلهة ويجعلونها شريكة للّه، والمعنى: هل من آلهتكم وأوثانكم التي تجعلونها شركاء للّه تفعل من ذلكم من شيء فتخلق أو ترزق أو تميت أو تبعث الناس أحياء يوم القيامة، وبما أن هذه الآلهة في نظر المشركين لا تفعل شيئاً من ذلك فكيف يعبدونها من دون اللّه. ثم برّأ اللّه نفسه عن الشريك فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشرِكُونَ﴾ أي تنزه اللّه وتقدس وعلا أن يكون له شريك في ملكه فهو الذي لا إله غيره.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان أن الذنوب والآثام التي يقترفها البشر تعود بالويلات والخراب عليهم:

﴿ظَهَرَ الفَسَادُ في البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدي النَّاسِ لِيُذيقَهُمْ بَعْضَ الَّذي عَمِلُوا لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ﴾ (٤١).

والفساد الذي أشار القرآن إلى ظهوره يحتمل أن يكون راجعاً إلى المعاصي التي اقترفها الناس، وشيوع الفواحش والمنكرات والظلم فيهم، ويحتمل أن يكون الفساد راجعاً إلى عقاب اللّه للعباد بسبب ذنوبهم: كالخوف والجوع والقحط ونقصان البركة وقلة الأمطار وغلاء الأسعار وكثرة الحرق والغرق. والمراد بقوله تعالى: ﴿في البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ فالبرّ يشمل المدن

والقرى البعيدة عن الأنهار والبحار، وأما البحر فيشمل القرى والمدن القائمة على سواحل الأنهر والبحار أو الجزر أو في البحر نفسه ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ بسبب معاصيهم وذنوبهم.

هذه الآية نزلت قبل أربعة عشر قرناً واليوم نقول: ظهر الفساد في البر والبحر بانتشار الفواحش والمخدرات والمسكرات والجرائم والرشاوي. وفي ذكر الفساد في البحر تصوير دقيق لواقعنا اليوم إذ لم يكن معهوداً من قبل فقد كثرت الفواحش والمنكرات وأصبحت النساء تستحم عاريات ونصف عاريات بالإضافة إلى ذلك ما يحصل في السفن السياحية من منكرات يندى الجبين من ذكرها، فذكر الفساد في البحر بجانب الفساد في البرّ لهو نبوءة للقرآن لما سيحصل في المستقبل من فساد في البحر.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي يذيقهم الله جزاء بعض عملهم السيّىء بنقص الأموال والثمرات والحروب والزلازل والفيضانات، أو ليذيقهم الله ما ينشأ عن المعاصي من أضرار صحية واجتماعية[1] تجعل حياتهم في بؤس وشقاء ﴿لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ﴾ عمّا هم فيه من المعاصي ويتوبون إلى ربهم.

فالفساد في المجتمع يقوض أسباب رقيه وسعادته وأمنه ويؤدي به إلى الخراب.

---

(١) ونشير إلى ما ينشأ من الزنا من انتشار الأولاد غير الشرعيين الذي انتشر انتشاراً مذهلاً وما يترتب عليه من جناية على المرأة وتخلخل في كيان الأسرة وأعباء مادية باهظة على الدولة وهذا ما يحصل في دول العالم المتمدن حتى أن بعض البلدان بلغ ثلث سكانها من الأولاد غير الشرعيين.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ
لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ
صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ
وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ
فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا
نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ
فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾

شرح المفردات

لِلدِّينِ القَيِّم : للدين المستقيم وهو دين الإسلام.

يَصَّدَّعُونَ : يتفرقون بعد الحساب قسم إلى الجنة وقسم إلى النار.

فَلأَنْفُسِهِم يَمْهَدُونَ : يهيئون لأنفسهم ما ينفعهم في الآخرة.

فَتُثِيرُ سَحاباً : تحرك وتنشر السحاب.

يجعله كِسَفاً : يجعله قطعاً متفرقة.

الوَدْق : المطر.

وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ
إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي
الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا
لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ
الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ
إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ *

شرح المفردات

لَمُبْلِسِينَ : لبائسين قانطين.
وَلَّوْا مُدْبِرِينَ : ذهبوا وانصرفوا.
مُسلمون : مطيعون خاضعون لله.

تابع سورة الروم

وبعد أن بيّن القرآن عاقبة الفساد في الأرض دعا إلى التأمل والنظر في مصير الأمم السابقة التي أهلكها الله جزاء كفرها :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مشركين﴾ (٤٢).

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك سيروا في الأرض وانظروا إلى مساكن الذين كفروا من قبلكم وشاهدوا كيف كان مصيرهم، ألم يهلكهم الله بعذابه ويجعلهم عبرة لمن اعتبر، فمنازلهم خاوية، وأراضيهم مقفرة موحشة كقوم عاد وثمود وقوم لوط ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُشْرِكِينَ﴾ فعل الله بهم ذلك لأن أكثرهم مشركين بالله. ويفهم من ذلك أن بعضاً منهم لم يكن مشركاً بالله ولكن العذاب يشمل الجميع عندما يطغى الكفر على الإيمان.

وإذا كان الفساد في الأرض والشرك بالله يؤديان إلى العذاب والهلاك فإن الله في الآيات التالية يرسم الخلاص من عذابه والفوز برضوانه :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ. مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِم يَمْهَدُونَ. لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الكافرينَ﴾ (٤٣ ـ ٤٥).

فالله سبحانه يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي وجّه وجهك بإخلاص لدين الإسلام ﴿القَيِّم﴾ أي البالغ الاستقامة الذي لا عوج فيه ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ﴾ من قبل مجيء يوم القيامة الذي لا يرده أحد لأن الله قضى

بمجيئه فهو لا محالة آت ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[1] يومئذٍ يتفرق الناس حسب أعمالهم ويفصل بينهم ففريق إلى نعيم اللّه في الجنة وفريق إلى عذاب اللّه في النار.

﴿مَن كَفَرَ﴾ وكفر تحتمل عدة معان: أي من أنكر وجود اللّه أو وحدانيته فلم يؤمن به، ومن كفر برسوله محمد فلم يصدقه، ومن كفر بكتاب اللّه وهو القرآن فلم يصدق أنه من عند اللّه، ومن أخلَّ بشريعة اللّه أو ترك ما لزمه من شكر اللّه عليه ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فعليه أوزار وآثام كفره، إنها كلمة جامعة تفيد الحصر وشمول الضرر بالكافر وحده ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً﴾ ومن أطاع اللّه فعمل بما أمره به في الدنيا وانتهى عما نهاه عنه ﴿فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ مهّد الشيء: وطّأه وجعله سهلاً تقول: مهد الفراش جعله ليناً يسهل النوم عليه، وتقول: مهد لنفسه، نظر لها وهيأ لها ما ينفعها، فالذي يعمل العمل الصالح فإنه يمهد لنفسه ويدبر لها ما ينفعها في الآخرة ويسهل لها أسباب الراحة والنعيم فيها، كما أن الفراش الممهد يُسَهِّلُ الراحة لمن يضطجع عليه.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ليكافىء اللّه الذين صدقوا بوجوده ووحدانيته، وعملوا بما أمرهم به من الأعمال الصالحة بما يستحقونه من نعيم في الآخرة ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي من ثوابه الذي وعد به من أطاعه، وعبّر عن ذلك بالتفضل لا الوجوب لأن اللّه هو المتفضل على الخلائق جميعاً ليس ملزماً بشيء على الإطلاق، فاللّه لا يكافىء الناس على عملهم وإنما يكافئهم من فضله، وهذا مما يزيد الرجاء في رحمة اللّه ويضاعف الهمم في

(١) يصدعون: أصلها يتصدعون أبدلت التاء صاداً وأدغمت في الصاد، والصدع: الشق في الشيء الصلب، ومعنوياً: الفصل بين الحق والباطل.

العبادة، وفضل اللّه ليس له حد ولا نهاية ﴿إِنَّهُ لا يحبُّ الكافِرينَ﴾ إنه سبحانه لا يحب الكافرين ولا يخصهم بفضله بل يبغضهم وبغض اللّه لإنسان أمر هائل لا يوازيه عقوبة من العقوبات.

ثم يبين القرآن فضل اللّه على الناس التي تستوجب الشكر لا الكفر:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم من رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ (٤٦).

أي ومن الدلائل على قدرة اللّه ورحمته وأنه لا إله غيره ﴿أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ أن يطلق الرياح مبشرات بنزول المطر، فالرياح هي السبب الجوهري لنزول المطر لأنها تكوّن السحاب وتكثفه في الطبقات العليا من الجو حيث تنخفض الحرارة ثم يتساقط على الأرض مطراً ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ وليهبكم اللّه من فيض إحسانه المنافع التي نشأت من نزول المطر ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ ولتجري السفن بأمر اللّه وقدرته بأن تطفو على سطح الماء وفق قوانين خاصة سنها اللّه في مادة السفن والمياه والرياح[1] التي تُسيّر السفن الشراعية ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولتطلبوا الرزق من فضله بالتجارة والرحلات واستغلال ما في البحر من ثروة حيوانية ﴿وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا اللّه على نعمه عليكم بعبادته إياه وطاعته.

ومثل إرسال الرياح مبشرات بنزول المطر الذي يحيي الأرض بعد موتها هو إرسال اللّه للرسل بالهدى الذي يحيي موات القلوب:

(١) كانت السفن الشراعية التي تسير بواسطة الرياح والمجداف هما الوسيلة الوحيدة لتسيير السفن قديماً قبل اختراع المحركات.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِم فَجَاءُوهُم بِالبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧).

فاللّه يخاطب رسوله محمداً مخففاً عنه الأسى: ولقد أرسلنا قبلك يا محمد رسلاً إلى قومهم الكفرة ﴿فَجَاءُوهُم بِالبَيِّنَاتِ﴾ فجاءُوهم بالمعجزات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم بأنهم رسل اللّه ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ الكلام هنا عطف على محذوف تقديره: وآمن بالرسل بعض قومهم وكذب البعض الآخر فانتقم اللّه من الذين أجرموا الآثام وفعلوا السيئات. فالمجرمون مهما صالوا وجالوا في الأرض ومهما بلغوا من قوة وسؤدد وغنى فإنهم لن يفلتوا من عقاب اللّه وبطشه ـ واللّه يمهل ولا يهمل ـ وإن بطش ربك بالمجرمين لشديد ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المؤْمِنينَ﴾ هذا الوعد الإلّهي فيه مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين، ووعد من اللّه لهم بالنصر على أعدائهم، وفي لفظة ﴿حَقًّا﴾ تأكيد في حتمية النصر لهم.

فاللّه سبحانه بشّر رسوله محمداً والمؤمنين بالنصر في وقت كانوا فيه مستضعفين يحيط بهم أعداؤهم من كل جانب ويفوقونهم عُدَّة وعدداً، ولكن بالرغم من ذلك جاء النصر للمؤمنين وانتشر الإسلام في كافة جزيرة العرب وامتد إلى البلاد المجاورة فانتصر المسلمون على دولتي الفرس والروم أقوى دولتين مجاورتين لهم في ذلك الزمن، كل ذلك يشهد بأن القرآن وحي إلّهي لا ريب فيه.

ونكرر قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ﴾ هذه الآية هي نبراس للمؤمنين في كل العصور للتضحية والمثابرة والصبر في مسيرة الإيمان وموجباته، فاللّه من عليائه يكلأهم برحمته وعنايته، ولن تذهب جهودهم وتضحياتهم سدى، فاللّه وعدهم النصر ولن يخلف اللّه وعده.

ويعود القرآن فيبين فضل اللّه وقدرته بإنزال المطر الذي يحيي الأرض بعد موتها الذي هو شبيه بإحياء اللّه للموتى يوم القيامة:

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ. فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحيي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لمحيي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٨ - ٥٠).

فالقرآن يقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ فاللّه وحده هو الذي يطلق الرياح مسخرة لأمره ﴿فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾ فتحرك هذه الرياح السحاب وتنشره ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فينشره اللّه ويجمعه في السماء كيف يشاء ﴿ويجعله كسفاً﴾[1] ويجعل اللّه السحاب قطعاً متفرقة ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ فترى المطر يخرج من خلال السحاب ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فإذا أنزل اللّه المطر على من يشاء من خلقه ﴿إِذَا هُم يَسْتَبْشِرُونَ﴾ إذا هم يفرحون، ولا يعرف حقيقة الفرح من نزول المطر كما

(١) القرآن أول كتاب قرر أن السحاب الممطر إنما تثيره الرياح، وقد كانت الفكرة السائدة قديماً أن المطر يأتي من مخزون في السماء عندما تفتح الآلهة الأبواب والنوافذ. ففي العهد الذي نزل فيه القرآن لم يكن أحد من الناس يعرف أن الهواء يحمل مقادير وافرة من الماء على هيئة بخار وأن هذا البخار هو الذي يُكوّن السحب ويعطي المطر عندما تندفع تيارات الهواء إلى أعلى، وفي طبقات الجو العليا حيث يقل الضغط وترتفع درجات البرودة يصير بخار الماء فوق مقداره المشبع فيتكاثف على هيئة سحاب ويتم هذا التكاثف عادة على جسيمات خاصة يحملها الهواء تسمى علمياً باسم (ندى التكاثف) وعند تكاثف السحاب واشتداد البرودة عليه لا يقوى الهواء على حمله فيسقط إلى الأرض مطراً.

يعرفه الذين يعيشون مباشرة على نزول المطر ﴿وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ وإن كان هؤلاء القوم قبل أن ينزل عليهم المطر ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي قبل نزول المطر وهو تكرار للتأكيد ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ لمكتئبين حزينين يائسين من احتباس المطر عليهم ﴿فَانْظُر إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ فانظر أيها المستمع نظرة اعتبار إلى آثار رحمة اللّه المتمثلة بنزول المطر الذي ينبت النبات والمراعي ويعطي الثمار والحبوب ﴿كَيْفَ يُحْيي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كيف أحيا اللّه الأرض بصنوف النبات بعد أن كانت مواتاً جافة لا حياة فيها ﴿إِنَّ ذَلِكَ لمحيي الْمَوْتَى﴾ إن الذي فعل ذلك وأحيا الأرض بعد موتها هو اللّه سبحانه الذي سيحيي الأموات يوم القيامة لمجازاتهم على أعمالهم ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾ وهو سبحانه عظيم القدرة لا يعزّ عليه شيء أراده ولا يمتنع عليه فعل شيء أن ينفذه.

ويتابع القرآن فيصف فئة من الناس جاحدة لفضل اللّه عليها لا تدرك حكمته في خلقه ولا يؤثر فيها وعظ ولا إرشاد:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا[1] لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ. فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ. وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عن ضَلَالَتِهِم إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُسْلِمُونَ﴾ (٥١ ـ ٥٣).

(١) وقد يكون المنعوت في مصفراً راجعاً إلى الرياح التي تكون جافة ساخنة قارية لا تعطي مطراً بل هي عقيمة بسبب حملها للرمال والأتربة، فعندما تحمل الرياح الساخنة الجافة الأتربة والرمال يكون لونها مصفراً نظراً لأن الجسيمات الصلبة العالقة فيها تعمل على تشتيت أشعة الشمس الصفراء بدرجة كبيرة فيبدو الجو مصفراً علامة للجفاف والجدب.

فاللّه سبحانه يقول: ﴿وَلَئِن أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ ولئن: اللام لام القسم، والضمير في ﴿فرأوه﴾ يرجع إلى النبات، والمعْنى: وأقسم لئن أرسلنا ريحاً ضارةً بالنبات فرأوا النبات مصفراً بسببها بعد اخضراره ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ لظلوا: جواب القسم، أي لصاروا من بعد اصفرار النبات يجحدون نعمة اللّه ويكفرون به وهذا دليل على سرعة تقلبهم وعدم صبرهم وضعف إيمانهم بدلاً من أن يستسلموا لقضاء اللّه ويتوجهوا إليه بالضراعة والتوبة ليرفع عنهم البلاء.

﴿فَإِنَّك لا تُسْمِعُ الموتَى﴾ أي فلا تحزن يا محمد من عناد الكافرين فإنهم كالموتى، والميت لا يسمع شيئاً عندما تدعوه للخير والهدى ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ وهذا الكلام هو في نهاية الدقة والروعة يبين مدى إعراض الكافرين عن الهدى، فالأصم إن كان يفهم فإنما يفهم بالإشارة ولكن إذا ولى مدبراً أي إذا أدار ظهره مسرعاً في الابتعاد عنك فإنه لا يسمع ولا يفهم، وهكذا شأن الكافرين الذين لا يسمعون ما ترشدهم إليه من الهدى، فتأمل بلاغة الوصف القرآني.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ العُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِم﴾ وما أنت يا محمد بمرشد من أعماه اللّه عن الاستقامة، ولم يوفقه لإصابة الرشد، ليس ذلك بيدك ولا يقدر على ذلك أحد غير اللّه ﴿إن تُسْمِعُ إلَّا مَنْ يُؤمِنُ بآيَاتِنَا﴾ أي ما تسمع الوعظ الذي ينتفع به إلّا من يصدق بآيات القرآن، أو يصغي إلى أدلة التوحيد، لأنه عند سماع آيات اللّه يتدبرها ويتعظ بها ﴿فَهُم مُسْلِمُونَ﴾ فهم خاضعون للّه بطاعته.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم
مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا
وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا
يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ
مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

شرح المفردات

شَيْبَةً : حال الشيخوخة والهرم.

يُؤْفَكُونَ : يصرفون عن الحق.

ولا هُمْ يُسْتَعْتَبون : لا يطلب منهم استرضاء اللّه بالتوبة والطاعة.

وَلَئِنْ جِئْتَهُم بآيَةٍ : ولئن جئتهم بمعجزة.

مُبْطِلون : تدعون باطلاً من القول.

يَطْبَعُ : يختم.

لا يستخِفَّنَّك : لا يحملنك على الخفة والطيش.

تابع سُورَة الرُّوم

ثم يعرض القرآن دليلاً ظاهراً على أنظار الجميع متمثلاً في خلق اللّه للإنسان ذاكراً أحواله في مسيرة العمر:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشاءُ وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ﴾ (٥٤).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿اللَّهُ الذي خَلَقَكُم مِنْ ضَعْفٍ﴾ فمصدر الإنسان هو الخلية الحية التي تنشأ من تلقيح الحيوان المنوي من الرجل مع بويضة الأنثى وهذه الخلية الملقحة هي في نهاية الصِّغر لا ترى بالعين المجردة، ثم يتطور الإنسان في الخِلقة في رحم المرأة حتى يصبح جنيناً ثم بشراً سوياً، ثم يتدرج في مراحل الطفولة وهي كلها ضعف على ضعف ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ ثم جعل اللّه من بعد هذا الضعف قوة وهي مراحل الشباب وفتوته ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً﴾ ثم جعل اللّه من بعد هذه القوة التي تتمتعون بها في شبابكم ضعف الشيخوخة عند الكبر في السن، ومع الشيخوخة ظهور الشيب تشخيصاً لها ﴿يَخْلُقُ مَا يَشاءُ﴾ إنَّ هذه المراحل التي يمر بها الإنسان لتشهد بأنها من صنع القدرة الإلّهية التي تخلق ما تشاء، وترسم لكل مخلوق أجله وأحواله وأطواره وفق علم وثيق وقدرة فائقة وهذا ما ختمت به الآية ﴿وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ﴾ فاللّه عليم بكل المخلوقات قادر على كل شيء، والعليم والقدير صفتان من صفات المبالغة في العلم والقدرة.

فاللّه سبحانه إذ يعرض هذه المراحل من خلق الإنسان فإنه بذلك يبين للمكذبين بالبعث بأنه قادر على كل شيء فكما أن اللّه خلق الإنسان ابتداءً، فهو قادر على إعادته حياً بعد مماته يوم البعث.

ثم يبين القرآن بعد ذلك مصير المجرمين في الآخرة:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ. فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٥٥ - ٥٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي ويوم تقوم القيامة وتتحقق وقد سميت بالساعة لأنها تقع في آخر ساعة من ساعات الدنيا ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يحلف المجرمون وهم الذين كانوا يكفرون بالله ويقترفون الذنوب وسيئات الأعمال ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي ما لبثوا في القبر أو في الدنيا إلّا فترة وجيزة من الوقت، فما قاسوه من عذاب القبر يعتبر مدة وجيزة لما شاهدوه من أهوال عذاب جهنم وحيث تتضاءل أمام أنظارهم الحياة الدنيا وملذاتها فكأنها برهة وجيزة من الوقت قضوها فيها ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ يؤفكون: يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، وعن الصدق في المقال إلى الكذب، والمعنى: كما صرفوا في الآخرة عن الحق والصدق في قسمهم أنهم ما لبثوا غير ساعة في الدنيا أو في القبر مع أنهم لبثوا حقبة طويلة كذلك كانوا يصرفون عن الحق في الدنيا ويكذبون بأنه لا بعث ولا جزاء بعد الموت.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ﴾ أي يقول الذين آتاهم الله العلم والإيمان من الملائكة والأنبياء وعلماء الأمم رداً على الكفار ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي لقد لبثتم في حكم الله وقضائه، أو فيما كتب الله مما سبق في علمه أنكم تلبثونه في حياتكم وفي مثواكم في القبر ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ إلى اليوم الذي يبعث الله فيه الناس أحياء للحساب والمجازاة على أعمالهم

وهذه المدة هي ولا ريب مدة مديدة ﴿فَهَذَا[1] يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ أي إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي كنتم لا تعلمون في الدنيا بأنه حق بل كنتم تنكرونه ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي يوم البعث لا ينفع الكافرين المكذبين بالبعث اعتذارهم عن إنكارهم للبعث في الدنيا وتكذيبهم لرسول الله ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يسمح لهم بإزالة غضب الله عليهم وإرضائه بتوبة وطاعة، وإذا طلبوا الرجوع إلى الدنيا للتوبة والطاعة لا يجابون إلى طلبهم.

ثم يختم الله هذه السورة مصوراً عناد الكافرين مع دعوة رسوله محمد إلى الصبر ووعده بالنصر:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن أَنتُم إِلَّا مُبْطِلُونَ. كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ. فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ (٥٨ - ٦٠).

والمعنى: ولقد مثّل الله للناس في هذا القرآن من كل مثل وبيّن لهم كل حجة تظهر لهم وحدانية الله وصدق رسوله محمد. ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ ولئن جئتهم يا محمد بآية من آيات القرآن الناطقة بذلك، أو جئتهم بمعجزة جاءت بها الرسل ﴿لَيَقُولَنَّ الذين كَفَرُوا﴾ مخاطبين محمداً وأصحابه ﴿إِن أَنتُم إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ إن: بمعنى ما، أي ما أنتم يا معشر المؤمنين إلّا أصحاب أباطيل فيما تجيئوننا من هذه الأمور من دينكم.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ طبع: ختم، فالختم

---

(١) فهذا: الفاء هي واقعة في جواب لشرط محذوف دل عليه الكلام.

كناية عن قسوة قلوبهم وإصابتها بصدأ وغشاوة بحيث لا ينفع فيهم موعظة، ولا تؤثر فيهم حجة، فما ألفه الكافرون من الضلال صار طبيعة فيهم وعادة بحيث يتعذر صرفه عنهم. والمعنى: فبمثل هذا الختم على قلوب الكافرين يختم الله على قلوب الجهلة الذين لا يعلمون حقائق الأمور ولا يتحرون الحق والصواب بل يصرون على خرافات ورثوها عن آبائهم وأكاذيب ابتدعوها.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فاصبر يا محمد لما ينالك من الأذى من قومك، واصبر على ما تسمع منهم من الأقوال الباطلة، وما تشاهد منهم من الأفعال السيئة فإن ما وعدك الله من النصر هو حق لا بد من إنجازه والوفاء به. هذه الآية من الدلائل على صحة نبوة محمد ففيها تأكيد على حتمية النصر على قومه الكافرين وهو ما تحقق فعلاً بعد فترة وجيزة من هذا الوعد الإلهي.

﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ يقال: استخف فلان فلاناً استجهله حتى حمله على اتباعه في الغيّ، أي لا يحملنك على الخفة والطيش والقلق هؤلاء المشركون بالله الذين لا يوقنون بوحدانية الله ولا يصدقون بالبعث ولا يثبطونك عن أمر الله وتبليغ ما أُمرت بتبليغه من شريعة الله بما يغرونك به من المغانم والجاه.

وهكذا يختتم الله هذه السورة بتأكيد النصر لرسوله محمد وللمؤمنين ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وتتناسق هذه الخاتمة مع ما جاء في وسط السورة ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَينا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومع ما جاء في مطلعها من الوعد بنصر الروم على الفرس ونصر المؤمنين على المشركين ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ هذه الانتصارات الموعودة فيها تقوية لأرواح المؤمنين ودفع لهم للثبات في مجال العقيدة.

سُورَةُ لُقْمَان

سميت هذه السورة بسورة لقمان لأن الله ذكر فيها لقمان الحكيم وإرشاداته ووصيته لابنه.

استهلت هذه السورة بالحديث عن القرآن الذي هو هدى ورحمة للمحسنين مع بيان صفاتهم، وتلا ذلك ذكر المضللين الذين يصرفون الناس عن هدى الله. ولفتت السورة الأنظار إلى الآيات الكونية والمظاهر الطبيعية التي تدل على قدرة الله تعالى وحكمته ووحدانيته، وتحدت المشركين أن يبينوا ما خلقته آلهتهم في هذا الوجود.

ثم انتقلت السورة إلى ذكر موعظة لقمان الحكيم إلى ابنه وما تشتمل عليه من أمهات الأخلاق السامية، وما اندمج فيها من وصية الله بالوالدين إحساناً، كما بينت أن الله سخّر للإنسان ما في السمٰوات وما في الأرض وأتم عليه نِعَمَهُ الظاهرة والباطنة مما يستوجب عبادته وحده، بينما المشركون يجادلون في وحدانية الله بغير علم.

وتنتزع السورة إقراراً من المشركين بأن الله وحده خالق السموات والأرض وهذا يستوجب عبادته وحده وعدم إشراك أحد معه في العبادة، ثم تشير السورة إلى شمول علم الله وقدرته وحكمته مما لا يمكن وصفها وتعدادها.

وتختتم السورة بتحذير الناس من يوم القيامة حيث لا ينفع والد ولده ولا ولد ينفع أباه، مع بيان علم الله بالمغيبات التي تخفى عن علم الإنسان.

سورة لقمان

آياتها ٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تلك ءايت الكتب الحكيم ﴿٢﴾ هدى ورحمة للمحسنين ﴿٣﴾
الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالأخرة هم يوقنون ﴿٤﴾
أولٰئك على هدى من ربهم وأولٰئك هم المفلحون ﴿٥﴾ ومن الناس
من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها
هزوا أولٰئك لهم عذاب مهين ﴿٦﴾ وإذا تتلى عليه ءايتنا ولى مستكبرا
كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴿٧﴾ إن
الذين ءامنوا وعملوا الصلحت لهم جنت النعيم ﴿٨﴾ خلدين فيها
وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم ﴿٩﴾ خلق السموت بغير عمد ترونها

شرح المفردات

الكِتَاب الحَكيم : هو القرآن الكريم المشتمل على الحكمة.

هُدى : طريق الحق.

لَهْوَ الحديث : الحديث الباطل الملهي عن الخير والعبادة.

هُزُواً : سخرية.

عَذَاب مُهين : عذاب يهينهم ويذلهم.

تُتلى عَلَيْه آياتنا : يقرأ عليه القرآن.

وَقْراً : صمماً.

عَمَدٍ : جمع عمود وهو ما يُرتكز عليه ويسنَد به.

وألقى في الأرض روسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا
من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴿١٠﴾ هذا خلق الله
فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظلمون في ضلل مبين ﴿١١﴾
ولقد ءاتينا لقمن الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر
لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد ﴿١٢﴾ وإذ قال لقمن لابنه وهو
يعظه يبني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴿١٣﴾ ووصينا
الإنسن بولديه حملته أمه وهنا على وهن وفصله في عامين أن
اشكر لي ولولديك إلي المصير ﴿١٤﴾ وإن جهداك على أن تشرك بي
ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع
سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴿١٥﴾

شرح المفردات

رَواسي : جبال ثابتات في الأرض.

أن تَميدَ بكم : لئلا تضطرب بكم.

بثّ فيها : نشر وفرّق فيها.

دابّة : هي كل ما يدب على الأرض من المخلوقات.

كريم : كثير المنفعة.

يعظه : يذكره بالخير الذي يرق له القلب.

وَهْناً عَلى وَهْن : ضعفاً على ضعف

فِصَاله : فطامه من الرضاع.

جَاهَدَاك : بذلا معك جهدهما وطاقتهما.

مَعروفاً : المعروف هو المستحسن من الأعمال والأقوال.

سورة لقمان

ايضاح و دروس

يستهلُّ اللّه هذه السورة ببيان أن القرآن هدًى ورحمةً للذين يحسنون العمل بما أمر اللّه به:

﴿الٓمٓ[١]. تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ. هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ. الَّذين يُقيمُونَ الصَّلاة وَيُؤْتُون الزكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ (١ ـ ٥).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ فالآيات: جمع آية وهي العلامة الظاهرة ثم أُطلقت على كل قسم من الأقسام التي تتألف منها سُوَر القرآن وهي المقصودة هنا والتي يفصل بعضها عن بعض بالوقف في التلاوة، وفي الكتابة بنقط أو أرقام. والكتاب: المراد به القرآن الكريم. والحكيم: أي المشتمل على الحكمة، والحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل، هذا بالنسبة إلى الإنسان، أما الحكمة بالنسبة إلى اللّه فهي معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ووصف القرآن بالحكيم في هذه السورة لأن فيها بعضاً من حِكَمِ لقمان ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي هذه الآيات هي هداية كاملة إلى ما يُبتَغى من ثواب الآخرة وسبب في رحمة اللّه لمن عمل بها، والرحمة من اللّه هي الإحسان المجرد والإنعام والتفضل على عبده ﴿لِلمحْسِنينَ﴾ للذين يعملون الحسنات ويحسنون العمل بما أنزل اللّه من القرآن.

﴿الَّذين يُقيمونَ الصَّلاةَ﴾ فمن صفات المحسنين أنهم يؤدون الصلاة

(١) الٓمٓ: راجع ما ورد عن هذه الأحرف في مطلع سورة العنكبوت.

المفروضة عليهم ويداومون عليها مستوفية لشروطها بما يتحقق المقصود منها، وهو التوجه الكلي إلى اللّه مع الخشوع مما ينقل النفس من أرجاس الدنيا إلى عالم الطُّهر ويحول بين الإنسان وبين اقتراف الفواحش والمنكرات.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فالزكاة هي الصدقة المفروضة التي أوجبها اللّه على الموسرين لإغاثة الطبقة الفقيرة بما يوفر لها أسباب العيش الكريم ويحفظ كرامتها وغير ذلك من الفئات التي حددتها الآية: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا[١] والمؤلَّفَةِ قُلُوبُهُم[٢] وفي الرِّقَابِ[٣] والغَارمينَ[٤] وفي سَبيل اللّه[٥] وابْنِ السَّبيلِ[٦]﴾ (التوبة: ٦٠).

وإذا صلح حال الطبقة الفقيرة ازدهر المجتمع وتوحدت قلوب أبنائه وانتفت عنه الفتن والثورات التي يثيرها الفقر.

﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ واليقين هو العلم الذي انتفت عنه الشكوك والشبه. أي ومن صفات المحسنين أنهم يعلمون حقاً ويؤمنون إيماناً جازماً بالبعث والحساب والثواب والعقاب بعد هذه الحياة. ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ هؤلاء المحسنون الذين ذكرت بعض أوصافهم هم السائرون على هدى اللّه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ وأولئك هم الفائزون بثواب ربهم يوم القيامة.

(١) والعاملين عليها: هم الذين يعملون في الزكاة يجمعونها ويوزعونها على مستحقيها.
(٢) المؤلفة قلوبهم: هم الذين يراد كسبهم نحو الإسلام أو درء مخاطرهم.
(٣) وفي الرقاب: أي في فك وتحرير أسر الأرقاء.
(٤) الغارمون: هم الذين استدانوا لضرورة ولم ينفقوا أموالهم على المحرمات ولم يستطيعوا وفاء دينهم.
(٥) في سبيل اللّه: الإنفاق على الجهاد في سبيل اللّه.
(٦) ابن السبيل: المسافر الذي ليس لديه من المال مايكفيه للعودة إلى بلاده.

ثم يعطي القرآن صورتين متقابلتين للضال والمهتدي فيقول سبحانه:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ. خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦ ـ ٩).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ واللهو كل باطل يلهي عن الخير، ولهو الحديث هو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها، وفضول الكلام وما يلهي عن الحق والهدى وذكر اللَّه، وكذلك الغناء[1] كما نص على ذلك ابن عباس وابن مسعود من صحابة رسول اللَّه ﷺ. يروى أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث لأنه اشترى كتب الأعاجم: رستم، واسفنديار، فكان يجلس بمكة؛ فإذا قال بعض رجال قريش: إن محمداً قال كذا ضحك منه وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس

---

(١) الغناء المحرم هو الذي يحرك النفوس ويبعثها على الهوى والمجون وارتكاب الآثام بما فيه من كلام فاحش وتشبيب بالمرأة وذكر الخمور والدعوة إلى احتسائها وغير ذلك من الآثام، ويجوز الغناء خالياً مما ذكر في أوقات الفرح كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة. وما ابتدعه الصوفية من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة والمعازف والأوتار في حلقات الذكر فحرام، أما الدف فمباح.

والغناء أصبح اليوم من مفسدات الجيل الجديد في نهاية القرن العشرين وقد أثار أحد الكتاب في أميركا أغاني الروك أندرول وما تحتويه كلمات أغنياتها من تمجيد كل ما في السلوك المنحرف بدءاً بالاغتصاب وسفاح القربى واللواط والشهوات البهيمية واحتساء الكحول وتعاطي المخدرات والثورة العنيفة ابتداءً بكراهية الأهل والمعلمين وصولاً إلى الانتحار. وقد وجد أن ٦٠٪ من كلمات هذه الأغنيات تحتوي على تعابير قذرة والجيل الجديد يتأثر بكلمات هذه الأغنيات مما بات يشكل أكبر خطر على الجيل الجديد في أميركا وفي العالم.

ويقول: حديثي هذا أحسن من حديث محمد. ويروى أيضاً أنه كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلاّ انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنّيه، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد...

﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يفعل ذلك ليصدّ الناس عن القرآن والإسلام جهلاً منه بالحق أو بالذنب الذي يقترفه ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً﴾ ويتخذ دين اللَّه وآيات القرآن سخرية ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أولئك الذين يفعلون ما ذُكِر، لهم عذاب يهينهم ويذلهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ وإذا قرئت على هذا الضال آيات القرآن الواضحات الدالة على أنها مُنَزّلة من عند اللَّه ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ أعرض عنها متكبراً وحاله في ذلك حال من لم يسمع هذه الآيات، وفي ذلك رَمْزٌ إلى أن من سمعها لا يتصور منه الاستكبار والإعراض عنها ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ كأن في أذنيه صمماً ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والبشارة بالعذاب جرت مجرى السخرية والتهكم به لأن البشرى لا تقال إلاّ في الخبر السار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إن الذين آمنوا باللّه فَوَحَّدُوهُ وَصَدَّقُوا برسوله محمد ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وعملوا بما أمرهم اللَّه به في كتابه من الأعمال الحسنة وانتهوا عما نهاهم عنه ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ لهم بساتين النعيم وهي دار الأبرار في الآخرة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها إلى غير نهاية ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً﴾ وهذا الجزاء وعدهم اللَّه به وعداً حقاً لا شك فيه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهو القوي الغالب الحكيم في تدبير خلقه.

ثم يلفت القرآن إلى بعض مظاهر قدرة اللَّه في الكون التي تشهد بوحدانيته وعظيم قدرته وحكمته:

﴿خَلَقَ السَّمٰوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (١٠ - ١١).

هذه الآيات التي تلفت الأنظار إلى الكون وما فيه من أسرار مدهشة هي التي يعتمد عليها القرآن في الاستدلال على وجود الخالق ووحدانيته، وفي القرآن كثير من الآيات في ذلك الموضوع.

واليوم نرى العلماء المتخصصين في كل مجال من مجالات الحياة يعترفون بأن إيمانهم بالله ينبع من تأمل ودراسة أسرار هذا الكون وما فيه من مخلوقات شتى، هذا وإن من البديهيات في العقل الإنساني أن لا صنعة بدون صانع فكيف بهذا الكون وما فيه من ملايين المخلوقات القائمة على نهاية الحكمة والإبداع أن توجد بلا صانع ولا خالق.

فالله سبحانه يقول: ﴿خَلَقَ السَّمٰوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ فالسموات هي مجموع ما نراه فوقنا في الفضاء من كواكب سيارة ونجوم تبلغ البلايين مما لا يمكن إحصاؤها وهي مرتبة بعضها فوق بعض دائرة في الفضاء الفسيح كل شيء منها في مكانه المقدر له بالناموس الإلٰهي ونظام الجاذبية غير المرئي، فليس لها عمد تعتمد عليه كالبناء بل الله هو ممسكها ومجريها إلى الأجل المقدر لها عند فناء الكون.

﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي وجعل الله في الأرض جبالاً ثوابت لئلا تضطرب بكم الأرض، فالجبال من أهم وظائفها الطبيعية

أنها تحفظ توازن القشرة الأرضية[1] ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ ونشر في الأرض وفرّق فيها من كل الحيوانات التي تدبّ عليها وتتحرك. فالكائنات الحية تتكون من وحدات أساسية هي الخلايا، فالخلية هي الوحدة المتناهية في الصغر والتي لا تُرى إلّا بالمجهر والتي تحتوي على مادة الحياة وبها القدرة على توزيع هذه الحياة على كل كائن حي كبيراً كان أو صغيراً، وفي كل خلية وحدات الوراثة التي تحافظ على كل نوع من أنواع الكائنات الحية فلا اضطراب ولا فوضى ولا خلل في مخلوقات الله، هذا وإن بلايين البلايين من الخلايا الموجودة على سطح الأرض لتشهد بعظمة القدرة الإلٰهية ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وإنزال الماء من السماء وفق قوانين ثابتة يدل على يد القدرة الإلٰهية المبدعة، فالماء النازل من السماء هو ماء البحار الذي يتبخّر بواسطة ناموس الحرارة فيصير سحاباً، ثم ينزل مطراً يُحيي به الله الأرض بعد موتها ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي فأنبت الله في الأرض من كل زوج من النبات: ذكر وأنثى، وهذا النبات ﴿كريم﴾ أي نافع يكثر خيره حسن المنظر. فقد جعل الله في كل الثمرات الذكر والأنثى حتى يتم تلقيح الأعضاء بطريق حبوب اللقاح الموجودة بالأعضاء الذكرية وبذلك تتوالد الأنواع وتتكاثر، فقد يكون الذكر وحده والأنثى وحدها كالنخل، وقد

---

(١) القشرة الأرضية في تغيرات مستمرة على وجه الأرض ولكنها تغيرات بطيئة لدرجة تحول دون ملاحظتها خلال آلاف السنين ويحدث التغير البطيء على سطح الأرض نتيجة لنشاط العوامل الجوية أو الطبيعية، ويطلق عليها (عوامل التعرية) فعوامل التعرية تنحت الجبال حتى تزيلها بمرور الزمن ثم ترسب فتاتها على قيعان البحار والمحيطات حتى تفيض مياهها فتغمر القارات وحتى تنوء بأثقالها من الرواسب فتتمخض عن ثورات جامحة وظهور سلاسل جديدة شاهقة من الجبال تزول هي الأخرى بعد أزمنة جيولوجية طويلة. وأحدث هذه الثورات ما نتجت عنه جبال الهملايا وجبال الألب. وقشرة الأرض ميزان دقيق حساس فكل مكان فيه بمثابة كفة متزنة مع كل مكان آخر حتى ولو كان الحال أعلى الجبال وكان الآخر قاعاً لأعمق البحار.

تكون الشجرة مشتملة على زهرتين إحداهما ذكر والأخرى أنثى، وقد تكون الزهرة مشتملة على الذكر والأنثى معاً، فعالم النبات كعالم الحيوان لا بد فيه من التزاوج لبقاء النسل في الأنواع.

ثم يأتي التعقيب على ما سبق بصيغة التحدي: ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي ذلك الذي ذُكِرَ هو من خلق الله وحده، فأروني أيها المشركون شيئاً خلقه هؤلاء الآلهة التي تعبدونها من غير الله، ولا يمكن أن يكون الجواب سوى أنه لا يوجد شيء خلقه هؤلاء الآلهة، وبهذا تبطل حجتهم في عبادتهم للأصنام وتقوم الحجة عليهم ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي ما عبد هؤلاء المشركون الأوثان والأصنام من أجل أنها تخلق شيئاً ولكن دعاهم إلى عبادتها ضلالهم الواضح الظاهر، وقد وصف الله المشركين بالظلم بسبب تعديهم وخروجهم عن الحق.

وبعد هذه الجولة في الكون ينتقل القرآن إلى الكلام عن لقمان وما خصه الله به من حكمة. ولقمان آختُلِفَ في هويته، والقرآن لم يحدد شيئاً من ذلك، وقد قيل إن لقمان كان رجلاً صالحاً ولم يكن نبيّاً، وقيل كان لقمان رجلاً أسودَ من سودان مصر. وقيل: كان عبداً حبشيّاً، وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل، وقيل غير ذلك.

فالله سبحانه يقول في شأن لقمان وحكمته:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ. وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٢ - ١٣).

فالله سبحانه خص لقمان بالحكمة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ والحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل وإدراك صواب الأمور. والحكمة تبعد

صاحبها عن مواطن الزلل وتسوقه إلى مواطن الخير فيكون نافعاً لنفسه، ونافعاً للناس، والحكمة أكثر ما تكون عطاءً من الله وهبةً منه، وقد وصف الله في القرآن مكانة الحكمة التي يخص بها من يشاء من عباده: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ (البقرة: ٢٦٩).

﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أن آشكر الله يا لقمان على إنعامه وإفضاله عليك حيث خصّك الله بالحكمة. والشكر لله هو على ثلاثة أنواع: شكر القلب وهو تصور النعمة واعترافاً بها ومحبة لله الذي أسداها، وشكر اللسان وهو الثناء عليه سبحانه، وشكر سائر الجوارح بالاشتغال بطاعته ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي إن عاقبة الشكر ليست عائدة إلى الله تعالى فإنه سبحانه لا ينتفع بشكر الشاكرين، ولا يتضرر بكفر الكافرين، بل إن عاقبة الشكر عائدة على الشاكر لأن الله يجزل الثواب له، وينقذه من الهلاك والعذاب، هذا وإن الشكر يحفظ الله به النعمة على عبده ويزيدها له، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧).

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ومن كفر نِعَمَ الله عليه أساء لنفسه لأن الله معاقبه على كفره بالآخرة وقد يكون في الدنيا أيضاً كما قال سبحانه عن إحدى القرى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ (النحل: ١١٢). والله سبحانه غني عن العباد لا يضره كفر الكافرين، وهو سبحانه ﴿حميد﴾ أي مستحق الحمد لذاته محمود على كل حال سواء كفر العبد بربه أم شكره.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ أي واذكر حين نصح لقمان ابنه وأرشده إلى عبادة الله وحده فقال له: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ والشرك هو جعل معبود آخر مع الله سواء أكان صنماً أو إنساناً

أو مظهراً من المظاهر الطبيعية أو المخلوقات الحية كما هو مشاهد في بقاع الأرض عند بعض الشعوب. وإنما كان الشرك بالله ظلماً عظيماً لأنه خروج عن الحق وتسوية بين المخلوق والخالق الذي منه كل النِّعم على الأرض، كما ان الشرك بالله ظلم للنفس الإنسانية حيث تذل لمخلوق مثلها أو دونها لا يملك لها نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا رزقاً.

ثم تأتي هذه الوصية من الله بالوالدين وقد جاءت معترضة على كلام لقمان على سبيل الاستطراد مبينة أن شكر الوالدين يأتي مباشرة بعد شكر الله:

﴿ووَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المَصِيرُ. وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُم فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾(١٤ - ١٥).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ هذه الوصية من الله ببرِّ الوالدين والإحسان إليهما على الإنسان أن يراعيها حق المراعاة وبالأخص أنها صادرة من رب العالمين ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ خصَّ الله الأم في صُلب الوصية للوالدين لبيان أن حقَّها على ولدها أعظمُ من حق الأب على ولده فقد نبّه الله الولد إلى أن أُمه حملته في بطنها وهو جنين ضعفاً على ضعف كلما نما الجنين وازداد وزناً، بالإضافة إلى آلام الوضع ﴿وفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أي وفطامه في تمام عامين، وفي هذين العامين تعاني الأم مشقة رضاعه، ومشقة نظافته والسهر عليه وحفظه من كل سوء ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ تأمل كيف قرن الله شكره بشكر الوالدين لمزيد الاعتناء بهما واحترامهما وتبجيلهما. وشكر الله وشكر الوالدين يستلزم من الإنسان أن يشكر كل من أسدى إليه معروفاً وإحساناً. وفي الحديث: لا يشكر اللّه من

لا يشكر الناس. ﴿إِلَيَّ المَصِيرُ﴾ إلى الله المرجع والمآب فيجازي كل إنسان على عمله.

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بي﴾[1] أي وإن بذل والداك - أيها الإنسان - وسعهما وطاقتهما ليحملاك على أن تشرك بعبادة ربك إلّهاً آخر ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي مما لا تعلم أنه لله شريك - ولا شريك لله سبحانه - هذا الكلام يفهم منه أن على الإنسان أن يأخذ عقيدته عن علم وفكر واقتناع لا أن يأخذها تقليداً وجهلاً ومسايرة لأحد فالانقياد لأي شخص بدون روية ولا تفكير بصواب ما يدعو إليه قد يقوده ذلك إلى الخسران والضلال ﴿فَلا تُطِعْهُمَا﴾ أي لا تطع والديك فيما يأمرانك به من الشرك بالله ﴿وَصَاحِبْهُمَا في الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ أي وعاشرهما في الدنيا عشرة جميلة ومستحسنة - ولو كانا مشركين بالله - ويكون ذلك بإطعامهما وكسوتهما وعدم جفائهما وانتهارهما، وعيادتهما إذا مرضا.

﴿واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ واسلك - أيها الإنسان - طريق من رجع إلى الله بالطاعة والتوبة ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ ثم إلى الله مصيركم ومعادكم بعد مماتكم ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ فأخبركم بجميع ما كنتم تعملون في دنياكم من خير أو شر.

---

(١) نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص فقد قال: لما أسلمت حلفت أمي لا تأكل طعاماً ولا تشرب شراباً قال: فناشدتها أول يوم، فأبت وصبرت، فلما كان اليوم الثاني ناشدتها فأبت، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها فأبت فقلت: والله لو كانت لك مئة نفس لخرجت قبل أن أدع ديني هذا، فلما رأت ذلك وعرفت أني لست فاعلاً أكلت.

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ
مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ
مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ
وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾
أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ
نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ

شرح المفردات

وَأْمُر بالمعروف وانْهَ عن المنكر : المعروف هو كل فعل يعرف بالعقل أو بالشرع حُسْنه، والمنكر هو ما يُنكر بهما.

عَزْمِ الأُمور : الأمور الجادة التي يجب عقد القلب على إمضائها.

تُصَعِّر خَدَّك للنّاس : لا تُمِلْ وجهك عنهم تكبراً.

مرحاً : فرحاً وبطراً وخيلاء.

فخور : مباه بماله وجاهه.

واقْصِدْ في مشيك : توسّط في مشيتك بين الإسراع والإبطاء بتواضع.

واغضض من صوتك : اخفض من صوتك ولا ترفعه عالياً.

أنكَرَ الأَصْوات : أقبح الأصوات.

سخَّر لكم : ذلّل لكم وجعله صالحاً للانتفاع به.

أسْبَغَ : أتم وأكمل.

كتاب منير : واضح الدلالة.

مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾
* وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ
وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا
ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ
مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ
ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ
وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

شرح المفردات

يُسْلِمْ وَجْهه إلى الله : يخلص نفسه لله.

مُحسن : عامل للحسنات، تارك للسيئات.

اسْتَمْسَكَ بالعُروة الوثقى : تمسك برضاء الله.

عَاقِبةُ الأُمور : نهايتها ومرجعها.

نَضْطَرُّهُم : نلزمهم ونسوقهم سوقاً.

عَذَابٍ غَليظ : شديد ثقيل (عذاب النار).

يَمُدُّه : يزيده.

كلمات الله : الألفاظ التي تصف علم الله وقدرته وحكمته وعجائب صنعه.

بَعْثُكُم : إحياؤكم بعد موتكم يوم القيامة.

تابع سورة لقمان

ويتابع القرآن فيذكر ما وصّى به لقمان ابنه من صفات الخير والحكم البالغة والآداب السامية:

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ. يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ. وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٦ - ١٩).

فاللّه يذكر ما قاله لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾[1] الضمير في ﴿إنها﴾ يرجع على أعمال الانسان من طاعة ومعصية وخير وشر، والمعنى: يا بني إن ما يعمله الإنسان من خير أو شر وإن كان في الصغر والقلة زنة حبة من خردل ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أي فتكن تلك الفعلة الحسنة أو السيئة في أخفى مكان كجوف الصخرة، أو كانت في آفاق السموات أو بقاع الأرض يظهرها اللّه ويحاسب فاعلها عليها، وهذا تمثيل لسعة علم اللّه وشمول قدرته وإحاطته بجميع الأشياء صغيرها وكبيرها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ واللطيف هو العالم بدقائق الأمور الذي لا تخفى عليه خافية، وهو سبحانه خبير بكل شيء لا يغيب عنه شيء.

---

(١) خردل: أثبتت التجارب العلمية أن الكيلوغرام من الخردل يحتوي على ٩١٣ ألف حبة وتكون الحبة حوالى جزء من ألف جزء من الغرام تقريباً وهذا أصغر وزن لحبة نبات عرف حتى الآن. فتأمل كلمات القرآن كل كلمة منه محسوبة مقصودة بدقة متناهية تظهر إعجازه.

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ وإقامة الصلاة أداؤها، والصلاة هي القيام بواجب العبودية للّه والثناء عليه وتوثيق الصلة به، وكلها أمور تطهر النفس من نوازع السوء وتحول بينها وبين اقتراف الفواحش والمنكرات.

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وطلب لقمان من ابنه أن يكون نافعاً للخلق وعضواً مفيداً في الجماعة الإنسانية وذلك بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والمعروف: اسم لكل فعل يُعرف حُسْنُه بالعقل أو بما شرعه اللّه، وهو خلاف المنكر.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما الدعامتان لصلاح المجتمع، وحاجز دون تسرب الفساد إليه، وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلّا شاعت فيهم الفواحش والمنكرات واستحقوا بذلك لعنة اللّه كما حلت بالذين كفروا من بني إسرائيل حيث قال سبحانه: ﴿لُعِنَ الذين كفروا مِنْ بَنِي إسرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوودَ وعيسَى ابنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكانوا يَعْتَدُونَ. كانوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فعلُوه....﴾ (المائدة: ٧٨، ٧٩).

﴿واصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ أمر لقمان ابنه بالصبر على المصائب وعلى شدائد الدنيا من مرض وفقر وإيذاء من الغير وغير ذلك، وفي ذكر الصبر عقب النهي عن المنكر إشارة إلى أن الناهي عن المنكر يصاب بالأذى ويتعرض للضرر أحياناً من دعاة الرذيلة والفساد فلا يجب أن يثنيه ذلك عن مهمته بل يتسلح بسلاح الصبر. ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ العزم والعزيمة هو عقد القلب على إمضاء الأمر وتنفيذه، أي أن الصبر من الأمور الواجبة التي أمر اللّه بها، والذي يجب عقد القلب على إمضائه وتنفيذه وهو من عزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة.

﴿ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تعرض بوجهك عن الناس إذا

كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم ولكن ألِنْ جانبك وابسط وجهك إليهم، والصَّعَر في الأصل داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه، وفي وصف المتكبر بلفظ الصعر تحقيرٌ من شأنه فالكبرياء داء معنوي كداء البعير الحسي ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ ولا تمش في الأرض متبختراً متكبراً معجباً بنفسك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ إن الله لا يحب كل متكبر فخور على الناس يعدد كل ما أُعطي من مال أو قوة أو جاه.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ والقصد في المشي ما بين الإسراع والإبطاء، ويقال قَصَدَ الطريق: استقام، فيكون المعنى: استقم في مشيك متواضعاً ولا تخالطه بالاختيال والكبرياء ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ واخفض من صوتك ولا ترفعه، فإن الجهر بالصوت بأكثر من الحاجة يؤذي السامع ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ إن أقبح الأصوات هو نهيق الحمير، فالجهر بالصوت ليس بمحمود وقد شبهه بنهيق الحمير للتنفير والبعد عن رفع الصوت، والحمار مثل في الذم والشتيمة ونهيقه مثل في الشناعة، وقد كانت العرب تفخر بجهارة الصوت فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعزّ في نظرهم، فنهى الله عن هذا الخلق وهذه العادة الجاهلية.

وهكذا يؤدب الله عباده بأشرف الخصال ومكارم الأخلاق بما جاء على لسان لقمان الحكيم والحكمة ضالة المؤمن ينشدها أينما كانت.

وبعد أن بيَّن القرآن فيما سبق أن الشرك هو ظلم عظيم انتقل إلى عرض الدلائل والبراهين التي تشهد بوحدانية الله:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ

مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢٠ - ٢١).

فالله سخَّر للإنسان ما في السموات والأرض. ومعنى سخَّر: ذلّل وأخضع وساقه قهراً إلى غرض معين والمراد بتسخيرها للناس هو الانتفاع بها. هذا التسخير لم يظهر في أجلى مظاهره كما ظهر في هذا العصر حيث سخَّر الإنسان الأرض للزراعة المتطورة واستخرج ما فيها من معادن ونفط وسخَّر الهواء لتنقلاته بواسطة وسائل النقل الجوي وارتاد الفضاء ووضع فيه الأقمار الصناعية للاتصالات اللاسلكية والصور المرئية كما سخَّر البحار للمواصلات واستخرج ما فيها من ثروة حيوانية وغير ذلك مما استفاده الإنسان، وهذا ما يظهر نِعَمَ الله على الإنسان كما قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي أتمّ وأكمل عليكم أيها الناس نعم الله الكثيرة منها الظاهرة التي تدرك بالعقل والحواس، ومنها النِّعم الباطنة كالمعرفة والعقل أو التي لا يدركها الناس وتخفى عليهم، هذا وإن الكشوفات العلمية بينت لنا كثيراً من منافع الكون التي كانت مغيبة عنا.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ومن الناس من يخاصم ويجادل في وجود الله ووحدانيته وإخلاص الطاعة والعبادة له بغير علم ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي ولا هدًى من نبي ولا كتاب منزل من عند الله نيِّر واضح الدلالة.

نعم من الناس من يجادل في وجود الله بغير علم فيفسر قيام الكون على المادة العمياء، ومنهم من يفسره بالتطورات المتوالية عبر ملايين السنين، وليس في تلك النظريات أشياء ثابتة بل هي تخمينات لا تلبث أن تتبخر أمام أسرار الحياة وحقائقها التي تشهد بوجود قدرة إلهية حكيمة أحسنت خلق كل شيء.

نعم إن من الناس من يجادل في وحدانية الله بغير علم فينساق إلى الأوهام والأساطير فيعدد الآلهة ويضفي على الأصنام والمظاهر الطبيعية وبعض المخلوقات والناس صفات الألوهية فيغرق في أوحال الخرافات التي تذله وتستعبده وتجعل حياته مضطربة تعيسة شاقة بما يقوم به من شعائر العبادات المرهقة والتضحيات الجسام.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وإذا قيل لهؤلاء الذين يجادلون في وحدانية الله جهلاً منهم بعظمة الله: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله محمد من الوحي وصدّقوا برسالته ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ هذا هو الدليل الذي يعتمد عليه المشركون في عبادتهم للأصنام وهو التقليد الأعمى للآباء والأجداد، فالتقليد للآباء هو العائق لكل دعوة إصلاحية يمكن أن تؤتي ثمارها الطيبة، فقد يكون الآباء على ضلال في العقيدة وفساد في السلوك فالاقتداء بهم هو استمرار للضلال المستحكم بهم، فالإسلام جاء مخاطباً للعقل ومثيراً للفكر للتخلي عن المعتقدات والعادات الباطلة التي ورثها الأبناء عن الآباء والأجداد ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي أيتبعون الشيطان بما حسّن لهم من سوء أعمالهم، والحال أنه يدعوهم إلى عذاب النار يوم القيامة.

ثم يقارن القرآن بين المؤمن المطيع لله وبين الكافر بالله:

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ. وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٢٢ ـ ٢٤).

فالآية تقول: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي ومن يخلص لله العبادة

والعمل وينقاد لأمره ويتبع شرعه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وهو عامل للحسنات تارك للسيئات فيطيع الله في كل أموره ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[1] فقد مثل الله المتمسك بالدين بحال من أراد أن يتدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن تعلق بأوثق عروة من حبل متين لا يخاف انقطاعه، وإنما يعني ذلك أنه قد تمسك برضا الله مما لا يخاف معه عذاب يوم القيامة ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ وإلى الله المرجع ومصير كل الأمور فيثيب المؤمنين ويعاقب الكافرين.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ ومن كفر بالله بأن أشرك الأصنام والأوثان معه في العبادة، ولم يخلص له العبادة وحده، ولم يُصدّق أن محمداً رسوله، وأن القرآن كتاب الله، فلا يحزنك كفره يا محمد ولا تهلك نفسك عليه حسرة وغماً ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ إلى الله مرجعهم ومصيرهم يوم القيامة ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ فيخبرهم الله ويحاسبهم بما عملوا من السيئات في الدنيا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن الله عليم بدخائل نفوسهم فكيف بظواهر الأعمال ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ نتركهم يتنعمون منا قليلاً في دنياهم ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ثم نُلجئهم على كُرْهٍ مِنْهم إلى عذاب شديد لا يُحتمل وذلك هو عذاب النار، شبه الله إلزامهم التعذيب بحال المضطر إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفصال عنه.

ثم يقيم القرآن الحجة على المشركين من اعترافهم بربوبية الله وحده:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ

(١) العروة الوثقى: العروة ما يتعلق به من عراه أي من ناحيته، وقيل هي موضع التعليق. وعروة وثقى، أي عروة قوية محكمة لا تنقطع ولا تنفصم.

الحَمِيدُ﴾ (٢٥ - ٢٦).

فاللّه سبحانه يقول: إنك إن سألت يا محمد هؤلاء المشركين باللّه الذين يجعلون مع اللّه آلهة أخرى: من خلق السموات والأرض؟ ﴿لَيَقُولُنَّ اللّهُ﴾ أي يعترفون بأن اللّه هو الذي خلقهم إذ لا يستطيعون إنكاراً لوضوح الأدلة في ذلك مؤيدةً بالفطرة الإنسانية، وهذا الاعتراف من المشركين أقام الحجة عليهم وأوجب القيام بالعبادة للّه وحده ونقض معتقداتهم الباطلة ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ﴾ الذي أوجد من دلائل وحدانيته ما يبطل كل عبادة لغيره سبحانه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أنهم بإقرارهم هذا قد أقاموا الحجة على أنفسهم بفساد عقيدتهم، فالتفرد في الخلق يوجب التفرد في العبادة.

﴿لِلّهِ مَا في السَّمٰواتِ وَمَا في الأَرْضِ﴾ أي وللّه ما في السموات والأرض خلقاً وتصرفاً وتدبيراً فكيف يتركون عبادته ﴿إِنَّ اللّهَ هُوَ الغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ إن اللّه هو الغني عن خلقه وعن عبادتهم له، المحمود بذاته الجدير بالثناء عليه من عباده.

وبعد أن بيَّن القرآن بأن اللّه خالق السموات والأرض ومالكها بيَّن بعد ذلك أن قدرة اللّه لا تقف عند هذا الحد وأنه قادر على أن يخلق غير ذلك مما لا نهاية له.

﴿وَلَوْ أَنَّما في الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. مَا خَلْقُكم وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٧ - ٢٨).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا في الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ أي ولو أن شجر الأرض كلها بريت أقلاماً ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾

وتحول البحر إلى مداد[١] يكتب به وزيد هذا البحر بسبعة أبحر[٢] وتحولت جميعها إلى حبر ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ﴾ في الكلام هنا حذف للإيجاز، والمعنى: ولو جلس الكتاب يسجلون بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات اللّه الدالة على علمه وعجائب صنعه وقدرته وحكمته وعظمته وصفاته، فماذا تكون النتيجة؟ إنها فناء الأقلام ونفاد المداد قبل أن تنفد كلمات اللّه، وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي[٣] لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ[٤] مَدَداً[٥]﴾ (١٠٩).

فقدرة اللّه تعالى لا تقف عند حد خلق السموات والأرض بل هو سبحانه قادر على أن يخلق غير ذلك مما لا نهاية له ﴿إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إن اللّه قوي غالب لا يعجزه شيء، حكيم لا يخرج عن علمه وحكمته شيء.

﴿مَا خَلْقُكُم وَلاَ بَعْثُكُم إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي ما خلقكم ابتداء أيها الناس جميعاً ولا بعثكم بعد مماتكم أحياء أمام قدرة اللّه إلاّ كخلق نفس واحدة أو بعثها حية ﴿إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إن اللّه سميع لأقوال عباده، بصير بما يعملون وهو مجازيهم على أعمالهم.

---

(١) المداد: هو الحبر السائل الذي يكتب به.
(٢) سبعة أبحر: تحديد العدد بسبعة المراد منه الكثرة لا تخصيص العدد المذكور.
(٣) لكلمات ربي: أي يسطر بها كلمات ربي.
(٤) بمثله: ليس المراد آخر فقط بل بمثله ثم بمثله ثم هلم جراً.
(٥) مدداً: زيادة.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ
مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا
يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ
الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا
إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا
لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ

شرح المفردات

يُولج : يدخل.

إلى أجلٍ مُسمّى : إلى الوقت الذي حُدّد لفناء الكون.

الفلك : السفينة.

غَشِيَهُم مَوْجٌ كالظُّلل : علاهم وغطاهم موج كالسحاب يُظلّهم.

مُخلصين له الدِّين : مخلصين له العبادة والطاعة.

مُقْتَصِد : معتدل لا ينحرف إلى الإفراط ولا إلى التفريط.

ختَّار : شديد الغدر.

كفور : جاحد ناكر (صيغة مبالغة للكافر).

لا يجزي : لا يقضي ولا يكفي ولا ينفع.

لا تغرَّنَّكم : لا تخدعنكم.

الغَرُور : ما يخدع من إنسان أو شيطان أو وسوسة النفس.

عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا
تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

تابع سورة لقمان

ويتابع القرآن الكلام على قدرة اللّه فيوجه الأنظار إلى بعض المظاهر الطبيعية التي أبدعها اللّه مما هي نعمة على عباده والتي تشهد بوحدانيته واستحقاق العبادة له وحده:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٢٩ - ٣١).

فالآية تخاطب الإنسان: ألم تعلم وتنظر نظرة اعتبار أن اللّه يُدخل كُلاً من الليل والنهار في الآخر فيجعل الليلَ يحل مكان النهار والعكس بالعكس، وهذا يحصل من دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس فيتبادل كل من الليل والنهار مكان الآخر لِأن الأرض كروية فالجهة المعرضة للشمس تكون نهاراً، يعاكسها الجهة المحجوبة عن الشمس فتكون ليلاً.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي وذلل اللّه الشمس والقمر لمصالحكم أيها الناس، فالشمس تعطي من الطاقة والأشعة المحسوبة ما به قوام حياة الإنسان والنبات والحيوان ولولاها لانعدمت الحياة على الأرض، فلو كانت حرارة الشمس أكثر مما هي عليه لأحرقت كل حيٍّ على الأرض ولو كانت حرارتها أقل مما هي عليه لأصبحت الأرض كلها جليداً يتعذر الحياة عليها،

والقمر سخّره الله ليعلم الناس عدد السنين والحساب ولتستفيد بعض الكائنات الحية من نوره الباهت ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي كل من الشمس والقمر يجري إلى الأجل والوقت الذي حدده الله لفناء الكون وهو يوم القيامة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وأن الله خبير بما تعملونه أيها الناس من الأعمال لا تخفى عليه خافية.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ ذلك: إشارة إلى كل ما سبق في هذه السورة مما ذكرته من خلق الله للسموات بغير عمد، وإنزاله الماء من السماء، وبث الدواب في الأرض، وإنبات أزواج النبات، وتسخير الشمس والقمر، كل ذلك لتعلموا أيها الناس بأن الله هو الخالق الذي لا يزول، المستغني عن كل شيء فهو الموجود الحق والإله الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ وكل ما سواه من الآلهة التي يتوجهون إليها بالعبادة لا تستطيع أن تخلق ذبابة ولا تملك ضراً ولا نفعاً لغيرها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وأن الله هو العلي في مكانته على كل شيء ذو الكبرياء في ربوبيته وسلطانه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ ألم تنظر ـ أيها الإنسان ـ إلى السفن تجري في البحر نعمة من الله ورحمة على خلقه وذلك حسب سنته التي سنها في الطبيعة وهو مابيّنه قانون الأجسام الطافية. وما أكثر النِّعم التي يحملها البحر حيث تنقل السفن الناس من بلد إلى بلد، وتحمل منتجات قطر إلى قطر آخر، بالإضافة إلى الثروة الحيوانية في البحر التي أصبحت من أهم مصادر القوت لكثير من الشعوب ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ ليظهر لكم بذلك بعض عجائب صنعه ودلائل قدرته وحججه عليكم. فللبحر روعة تثير النفس ويذكرها بالخالق وبالأخص عند هيجانه. والبحر يبلغ حجمه ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ويحتوي من عجائب المخلوقات البحرية ذات الألوان المتعددة والأحجام المختلفة والخصائص المتنوعة بما يشهد

بوجود الله وعظمته وقدرته الحكيمة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن في ذلك لدلائل وعبراً لكل من صبّر نفسه عن إتيان محارم الله وصبّر نفسه في الضراء، وشكر الله على نعمه.

وفي مناسبة الكلام عن البحر يعرض القرآن دليلاً على وجوب إخلاص العبادة لله وحده، هذا الدليل مستقًى من الفطرة الإنسانية التي تلجأ إلى الله وحده عند الخوف من الغرق بسبب تعاظم الموج:

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٣٢).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أي وإذا كان الناس في البحر، وأدركهم الموج العالي يتدافع بعضه خلف بعض فغطاهم وظللهم كالسحاب ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ابتهلوا إلى الله بالدعاء وتركوا كل ما عداه مما كانوا يعبدون من الأصنام والأوثان.

هذه هي الفطرة الإنسانية التي تلجأ إلى الله وحده عند اشتداد الكرب والوقوع في براثن الخطر. فالإنسان كما يصل إلى معرفة الله بعقله والتفكر فيما يراه من المخلوقات الدالة على وجود الخالق، كذلك يعرف الإنسان ربه بفطرته، وهذه الفطرة أبرز ما تظهر عند اشتداد الحاجة عند الإنسان إلى منقذ ومعين ينشله من الضر والهلاك، حتى الذين ينكرون وجود الله رأينا الكثير منهم يدعون الله ويلجأون إليه عند اشتداد الخطر على حياتهم، ألا يكفي هذا الإحساس الفطري في الإنسان بأن ينبذ كل مظاهر عبادة غير الله.

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي فلما نجّى الله من في البحر ممن كاد أن يدركهم الغرق انقسموا إلى قسمين ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي موفٍ بما عاهد الله عليه في البحر من إخلاص الدين له والعبادة والتمسك

بالتوحيد والطاعة، وفي الكلام حذف تقديره: فمنهم مقتصد، ومنهم كافر. وقيل مقتصد بمعنى: معتدل لا ينحرف نحو الإفراط ولا نحو التفريط ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ وما ينكر هذه الدلائل والحجج عن استحقاق العبادة لله وحده ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ[١] كَفُورٍ﴾ إلّا كل غدار مبالغ في الكفر، جحودٍ لِنِعَمِ ربه عليه.

وبمناسبة ذكر أهوال البحر يذكّر الله الناس بالهول الأكبر وهو هول يوم القيامة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾ (٣٣).

فالله سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي يا أيها الناس اجعلوا بينكم وبين الله وقاية من عذابه بأن تخصوه وحده بالعبادة وتطيعوه ﴿وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ وخافوا أن يحلّ بكم سخطه وعقابه - إن عصيتموه - يوم القيامة حيث لا يغني ولا يكفي والد عن ولده ولا ينفعه بوجه من الوجوه لاشتغاله بنفسه، فلا تنفع عند الله الشفاعة لإنسان إلّا وسيلة من صالح الأعمال أسلفها في الدنيا ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ ولا ولد يغني ويكفي عن والده شيئاً[٢] ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إن ما وعد الله بالبعث حق، وما وعد بثواب الجنة حق، ووعيده بعذاب النار حق ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فلا تخدعنكم زينة الحياة ولذاتها وتتركوا الاستعداد والعمل لما فيه خلاصكم ونجاتكم من عقاب الله ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم

(١) الختر: أقبح الغدر.

(٢) من الملاحظ أن الآية الكريمة قدمت رعاية الوالد لولده على رعاية الولد لوالده لأن شفقة الأب على ولده أعظم وأتم.

بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾ ولا يخدعنكم خادع سواء أكان من الناس، أم كان الشيطان، أو وسوسة النفس وأهواءها فيمنيكم بعفو الله ورحمته فيقول: تمتع بالدنيا حلالها وحرامها فرحمة الله واسعة.

ثم يأتي ختام هذه السورة وفيه تصوير لعلم الله الشامل وإثبات لعجز الإنسان وضعفه:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[١]﴾ (٣٤).

فالله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ والساعة هنا هي القيامة فالله يعلم الوقت الذي تأتي فيه فليحذر الناس أن تأتي القيامة وهم يرتكبون المعاصي وليستعدوا لها بطاعة الله ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ وينزل الله المطر من السماء، وقد يعرف الناس بآلات الرصد قرب نزوله، وقد يستطيعون بأسباب كيميائية أن يحولوا سحابة إلى مطر ضمن إطار ضيق بتكاليف باهظة ولكنهم لا يقدرون على خلق الأسباب التي تنشئه، فالله سبحانه هو الذي ينزل الغيث في كافة المعمورة وهو المنشىء للأسباب الكونية التي تكوّنه من تبخر المياه بواسطة أشعة الشمس وتجمعه في سحاب بواسطة الرياح ثم تنقله إلى البلد الذي يريد الله أن ينزل به المطر بفعل برودة الجو وغير ذلك من الأسباب.

﴿وَيَعْلَمُ ما في الأَرْحَامِ﴾ فالله وحده يعلم ما في أرحام الإناث ونوع هذا الحمل ذكراً كان أو أنثى ويعلم مصيره ورزقه وأجله وشقي أم سعيد.

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمهن إلّا الله وقرأ هذه الآية (أخرجه البخاري والإمام أحمد).

وهذا لا يمنع الإنسان من معرفة ما في الأرحام من حمل ذكراً كان أم أنثى فلو أراد الله أن لا يعلم الإنسان شيئاً عما في الأرحام لما أنزل في القرآن كثيراً من الآيات التي وصفت مختلف أطوار الجنين، هذا وإن معرفة الإنسان ما في الأرحام ليست معرفة غيبية فهذه الأشياء موجودة عند التلقيح ولكن العلم كشفها في الجنين بعد فترة ما من تكونه وقد أمكن ذلك بواسطة الصورة الصوتية التي تحدد نوع الجنين مع عقبات تعترض كشف نوع الجنين وذلك في حال وجود التوائم وفي بعض حالات وضع الجنين.

ولكن نتساءل هل إن «ما» في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ ما في الأَرْحَامِ﴾ مقصود بها الذكورة والأنوثة فقط في الجنين؟ لا، هنالك مدلولات شتى لها، فالله يعلم مستقبل الجنين وما يطرأ عليه من صحة ومرض، وطول في العمر أو قصره، ومن غنى أو فقر، ومن شقاء له أو سعادة. وهذه أمور غيبية هي في علم الله وحده. وقد أشار الحديث الشريف إلى ذلك فقد رُوي عن رسول الله ﷺ قوله: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر (أي الملك) بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد» رواه البخاري ومسلم.

ونتابع التساؤل فنقول: هل كل امرأة حامل تسأل عما في بطنها ليخبرها الطبيب المختص أذكر هو أم أنثى، وهل هناك طبيب واحد في الدنيا تذهب إليه كل نساء الأرض ليخبرهن عن نوع الجنين الذي في بطنهن، وهل هذا الطبيب يكون مصيباً في تحديد نوع الذكورة والأنوثة بدون خطأ؟ لا، هذا مما لم يقل به إنسان، وشتان ما بين علم الله وعلم الإنسان.

ثم إن هذه الأمور الغيبية الثلاثة التي في علم الله لم تنف الآية علمها عن الخلق إلّا بخصوص علم الساعة لذا قال سبحانه: ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾

ولم يقل: يعلم الساعة، كما قال سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ أما العلم بنزول الغيث، والعلم بما في الأرحام - هذا إذا كان المراد منه تحديد نوع الذكورة والأنوثة - فإن ذلك لم تنفها الآية عن الخلق.

ثم تأتي بقية المغيبات التي استأثر الله بها بجانب علمه بالساعة والتي نفى إمكان التعرف عليها بأسلوب النفي القاطع وهما: كسب الإنسان في غده ومكان موته.

فالله يقول: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غداً﴾ والكسب هنا عام سواء الكسب المادي كالحصول على المال أو كسب الأعمال كفعل الخير والشر، أو ما يصيب النفس من صحة ومرض وعسر ويسر، وهذا مشاهد في حياة الإنسان فهو معرض في كل وقت إلى مفاجآت وأحداث تخرج به عن برنامج عمله وتخطيطه فلا يملك الإنسان السيطرة عليها وتوجيهها حسب رغباته وتطلعاته.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تموتُ﴾ هذه هي الحقيقة البادية للعيان التي قهرت الإنسان وأظهرت مدى ضعفه أمام قوة الله القاهرة، نعم لا يدري الإنسان - ملكاً أو صعلوكاً، غنياً أو فقيراً - أين يكون حتفه في الجو أو في أعماق البحر[1]، في السهل أو الجبل، في فراشه أو موضع عمله، في بلده أو في بلد من بلدان العالم، كل ذلك يجهله الإنسان جهلاً تاماً.

ثم يأتي التعقيب على هذه الأسرار الكونية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ فالله عالم بكل أمور الكون، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها.

(١) يذكرنا ذلك بأحد أثرياء لبنان الذي شاد قبراً فخماً في حديقته وأنفق عليه الأموال الباهظة ليكون مأوى له في مثواه الأخير. وفي إحدى رحلاته سقط بطائرته الخاصة في البحر واختفت آثاره رغم الاستعانة بشركات عالمية مختصة بالغوص في المياه، ولم تفلح كل الجهود في العثور على جثته لتدفن في القبر الذي شاده فكان مثواه الأخير في البحر.

سُورَةُ السَّجْدَة

سُميت هذه السورة بسورة السجدة لأن الله ذكر فيها أوصاف المؤمنين الذين إذا سمعوا آيات القرآن تُتلى عليهم خرّوا سجّداً لله تعظيماً لجلاله وحمداً له على نعمة الإيمان.

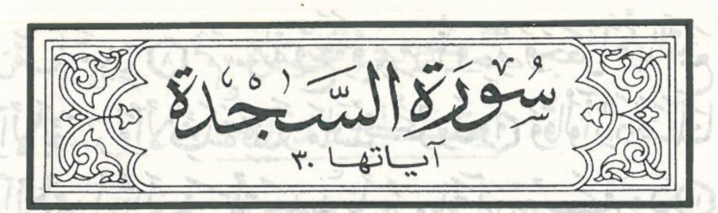
تُستهل هذه السورة ببيان أن القرآن مُنزّل من عند الله وليس من تأليف محمد، وهو كتاب يشتمل على الحق والهداية للناس.

ثم تحدثت السورة عن قدرة الله العظيمة في الكائنات العلوية، ثم انتقلت إلى خلق الله للإنسان وما خصه من نعمة السمع والبصر والإدراك.

وتذكر السورة مصير المجرمين في الآخرة حيث يقفون بين يدي ربهم مطاطئي الرؤوس حياءً وخجلاً متمنين على ربهم أن يعيدهم إلى الدنيا ليعملوا الأعمال الصالحة ولكن فات الأوان وحقت كلمة الله عليهم أن يُعذّبوا في النار.

وتذكر السورة صفات المؤمنين الأبرار وكيف كانت تتباعد أجسامهم عن مضاجعهم في الليل ويقومون بالعبادة والصلاة خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه فأعطاهم الله في الآخرة ما تقرّ به أعينهم ثواباً لهم على أعمالهم الصالحة.

وتحدثت السورة عن إعطاء الله التوراة لموسى التي كانت هدى لبني إسرائيل وقد جعل منهم أئمة في الدين حين صبروا على طاعة الله وصدّقوا بآيات الله عن يقين. كما تدعو السورة إلى الاعتبار بالأمم الخالية وما أصابها من هلاك جزاء كفرها.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ

شرح المفردات

لا ريب فيه : لا شك فيه.

افْتراه : اختلقه.

اسْتوى على العرش : استولى واستقر بلا كيف. وهذا كناية عن التملك، فالله ليس كالأجسام الحالة في مكان دون مكان.

يَعْرُجُ إليه : يصعد الأمر إليه بعد تدبيره.

مِمَّا تَعُدُّونَ : مما تحسبون من أيامكم الزمنية في الدنيا.

عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ : عالم بما يغيب عن حواس الناس وبصائرهم وما يشهدونه بها.

أَحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ : أحكم وأتقن كل شيء تولى خلقه.

مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

شرح المفردات

ماءٍ مَهين : ماء ضعيف وهو النطفة (مَنِيّ الرجل والمرأة).

سَوَّاهُ : قوّمه بتصوير أعضائه وتكميلها.

وَنَفَخ فيه مِن رُوحِهِ : بعث اللّه فيه الحياة، والروح أمر رباني.

ضَلَلْنا في الأَرْضِ : ضعنا فيها بأن صرنا تراباً مختلطاً بترابها.

أئِنّا لفي خَلْقٍ جديد : أنبعث أحياء بعد الموت ونعود خلقاً جديداً.

وُكِّلَ بِكُم : عهد إليه قبض أرواحكم.

ناكِسُو رؤوسهم : مطرقو رؤوسهم ذلاً وحياءً.

إنّا مُوقنون : إنا أصبحنا مؤمنين إيماناً لا شك فيه بأن البعث حق.

لآتَيْنا كُلَّ نَفسٍ هُداها : لهيأنا لها سبيل الهداية.

الجِنَّة : الجن.

فذوقوا بما نسيتم لِقاءَ يَوْمِكُم هَذا : فقاسوا العذاب بسبب إغفالكم لقاء يوم البعث.

إنّا نسيناكم : إنا تركناكم تقاسون العذاب ترك المنسي.

عذاب الخلد : عذاب النار الدائم.

سُورَةُ السَّجْدَة

ايضاح و دروس

يستهل اللّه هذه السورة بالتأكيد على أن القرآن مُنَزَّلٌ من عند اللّه وأن رسوله محمداً ﷺ صادق فيما جاء به من الوحي من عند ربه :

﴿الٓمٓ . تَنْزِيلُ الكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١ ـ ٣).

فاللّه سبحانه يقول بأن القرآن الذي أُنزل على محمد لا شك فيه إنه من اللّه رب العالمين ومدبر أمورهم ﴿أمْ[1] يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل أيقولون اختلق محمد القرآن ونسبه إلى اللّه، ما كان لهم أن يقولوا هذا، والقائل بهذا القول بعض العرب الذين حاربوا الإسلام استبقاء لمغانم مادية، ومناصب رئاسية يحرصون على استمرارها لهم ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فليس القرآن كما يزعمون من تأليف محمد بل هو الحق والصدق من عند ربك يا محمد أنزله عليك ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً﴾ لتخوف قومك من عذاب اللّه وسطوته أن يحل بهم بسبب كفرهم ﴿مآ أتاهُم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي لم يأتِ هؤلاء القوم من قريش والعرب الذين أرسلك ربك يا محمد إليهم رسول من اللّه قبلك من عهد إسماعيل إلى عهدك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لعلهم يتبصرون سبيل الهدى فيسيرون الى نهجه.

فقضية الايمان بأن القرآن منزل من عند اللّه هي التي أراد اللّه إعلانها

---

(١) أم : تقدر ببل وألف الاستفهام، أي بل أيقولون.

في مطلع هذه السورة لينفي الشك عن قلوب بعض العرب الذين كانوا يتهمون القرآن بأنه أساطير الأولين وأنه شعر، وأن محمداً قد اختلقه.

فالقرآن له نظمه الخاص وليس بشعر لأنه لم يلتزم بأوزان الشعر وقوافيه، ولم ينظم محمد بيتاً من الشعر في حياته، والقرآن ليس من أساطير الأولين، والأساطير كما هي معلومة مجموعة من الأكاذيب والخرافات المتداولة.

فالقرآن هو الحق من عند الله لأنه جاء لمحاربة عبادة الأصنام والدعوة إلى عبادة الله وحده، والإيمان بكتب الله ورسله واليوم الآخر، كما دعا إلى العدل والإحسان ومكارم الأخلاق، ونهى عن الفحشاء والمنكر والتقاتل والتظالم وأكل حقوق الضعفاء.

واليوم نرى أن القضية ذاتها تراود أذهان كثير من أتباع الديانات الأخرى الذين يفترون زوراً وبطلاناً بأن القرآن من تأليف محمد ولكنهم لو درسوا القرآن بتجرد وكان لهم إلمام باللغة العربية لآمنوا من أعماق نفوسهم وأيقنوا أن القرآن لا يمكن أن يكون من كلام البشر لأنه يخالف كل الكتب المعهودة عند البشر قديماً وحديثاً وليس هناك كتاب يوازيه هداية وإصلاحاً وخيراً للبشرية وغذاءً للروح، بالإضافة ما يتميز به القرآن من بلاغة وفصاحة في الكلام عجز بلغاء العرب عن مجاراته في كل العصور.

ثم إن محمداً في مدى عمره لم يعهد عنه الكذب في أقواله وفي معاشرته للناس فكيف يصدق مع الناس ويكذب مع الله ويدّعي النبوة كذباً وبهتاناً وهي أخطر قضايا الوجود التي لا يدّعيها ويفتريها زوراً إلاّ رجل خبيث النفس، واسع الأطماع، محب للجاه والمال والسلطة، يسخر الناس لشهواته. وهذه كلها أمور كانت بعيدة عن أخلاق الرسول، فمحمد لم يدّعِ

النبوّة بل كان رسول الله حقاً تشهد على ذلك حياته كلها.

والقرآن تستشعر من آياته جلال ربوبية الله وعظمته فليس فيه صبغة كلام الناس وما درجوا عليه في كلامهم وكتاباتهم، تأمل هذه الآيات التالية التي أعقبت مطلع هذه السورة:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَالَكُم مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ. يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ. ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٣-٦).

فالمعبود الذي تصلح له العبادة هو الله وحده **﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾** فهو سبحانه خلق بلايين الأجرام السماوية، وخلق الأرض وما فيها من ملايين الكائنات الحية، وما بين السماء والأرض من غلاف الأرض الجوي، وما يحتوي من إشعاعات مختلفة وغازات، وأتربة كونية، وكتل هوائية، وأبخرة مائية **﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾** أي في أطوار أو مراحل أو دهور ـ والله أعلم ـ وليست هذه الأيام كما هي في عرفنا الحاضر فيوم الأرض يحصل من دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، أما قبل خلق الشمس فلم يكن ليل ونهار، وأيام الله غير أيام الناس كما جاء في القرآن: **﴿وإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾** (الحج: ٤٧).

﴿ثُمَّ استوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي استقام كل ما في السموات والأرض على مراده سبحانه بتسويته إياه، وقيل: مَلَكَ وعلا فوق العرش علوّاً يليق بجلاله.

والعرش كُنِّيَ به عن العز والسلطان والمملكة، وعرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلاّ بالاسم، وليس المراد كما تذهب إليه أوهام العامة من

أن اللّه جالس على العرش، فلو كان كذلك لكان العرش حاملاً للّه تعالى واللّه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ (فاطر: ٤١).

فاستواء اللّه على العرش هو بلا كيف، واللّه لا يشبه شيء من خلقه كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ﴾ أي يدبر اللّه شؤون الخلق من السماء إلى الأرض بالملائكة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾[1] ثم يصعد إليه أمرها ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي في يوم كان مقداره ألف سنة[2] مما تحسبون من أيامكم الزمنية في الدنيا خمسمائة سنة في النزول وخمسمائة في الصعود ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ذلك المدبِّر لأمور الخلق هو اللّه سبحانه العالم بكل شيء، يعلم ما هو غائب عن المخلوقين مما لا يبصرونه، ويعلم ما هو مشاهد لهم مما يبصرونه ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ القوي الغالب الشديد في انتقامه ممن كفر به، الرحيم بعباده الذين تابوا عن ضلالتهم وعملوا بطاعته.

---

(١) عبّر القرآن عن الصعود في السماء بلفظ (يعرج) والعروج هو الصعود ويأتي في اللغة بمعنى: الميل، يقال للطريق إذا مال قد انعرج، وانعرج القوم عن الطريق: مالوا عنه، وانعرج: انعطف أي مال، ومال بمعنى: زال عن استوائه واستقامته، وهذه حقيقة علمية فالفضاء الكوني لا يعرف الخط المستقيم، فالسبح في الفضاء بعيداً عن الأرض يتم في مسارات منحنية.

(٢) القرآن يشير إلى نظرية النسبية بالنسبة إلى الزمان، أي أن الزمان نسبي وهذا ما توصل إلى إدراكه العلماء الكونيون من قريب، فكل مكان في الوجود له زمنه الخاص به، ومن أقرب الأمثلة على ذلك السنة على كل كوكب من الكواكب السيارة التي تتبع الشمس، والمقصود بالسنة الفترة الزمنية التي يتم فيها الكوكب دورة كاملة حول الشمس وهي تختلف إلى حد كبير من كوكب إلى آخر، فالسنة على الأرض تحسب بمقدار الزمن الذي تقطع فيه الأرض دورة كاملة حول الشمس أي في نحو ٣٦٥ يوماً، على حين أن الكوكب عطارد يقطع دورته حول الشمس في ٨٨ يوماً والكوكب بلوتو يتم دورته حول الشمس في ٢٥٠ سنة بالنسبة إلى سنواتنا على الأرض.

ويتابع القرآن فيذكر نوعاً من إبداع اللّه في خلقه متمثلاً في خلقه للإنسان:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (٧ ـ ٩).

فاللّه سبحانه هو ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي أتقن كل شيء وأحكمه، فلم يجعل صورة البهائم تماثل صورة البشر، ولا صورة البشر تماثل أشكال البهائم.

فكل أنواع المخلوقات من أصغر حشرة إلى أكبر الحيوانات التي تدب على الأرض انتقالاً إلى أنواع الطيور المختلفة والأسماك التي تسبح في أعماق البحار، كل منها إذا تأملتها في شكلها وألوانها المتناسبة ونظام حياتها، والمحافظة على نوعها، وتركيب أعضائها لرأيت في ذلك كله مدى الحكمة الإلٓهية التي أبدعت وأحسنت خَلْق كل شيء ﴿فتبارك اللّهُ أَحْسَنُ الخالقين﴾.

والإنسان مع ما بلغه من علم وما أقام من مختبرات لم يستطع أن يخلق أبسط حشرة، ولم يتوصل إلى إبداع خلية واحدة، هذا هو التحدّي الرباني للإنسان ليعرف حدوده فلا يأخذه الغرور عندما يصل إلى درجة متقدمة من العلم.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ والمراد بالإنسان هنا آدم الذي انحدر منه الجنس البشري الذي خلقه اللّه من طين ثم قال له: كن فكان، والطين هو التراب المختلط بالماء.

وخلق الإنسان من تراب هو حقيقة لا ريب فيها، فلو أُخِذَت قطعة من

جسم الإنسان، وأُجْرِيت عليها عمليات التحليل لوجد أنها تتركب من نفس العناصر التي تتركب منها تربة الأرض. وجسم الإنسان يحوي مليارات الخلايا كل منها قطرة من البروتوبلازما، والبروتوبلازما مادة لزجة شفافة تسعة أعشارها من الماء والبقية من كل أنواع التراكمات الجزيئية وأهمها البروتينات، فالإنسان خلق من طين أي من تراب وماء ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ ثم جعل اللّه ذرية آدم ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ فالسلالة في اللغة: ما استل من الشيء وانتزع منه برفق، والماء المهين هو النطفة الضعيفة، والمراد بها ماء الرجل وماء المرأة أي منيّهما. فالسلالة هي الحيوان المنوي في ماء الرجل، والبويضة في ماء المرأة، فمنيّ الرجل يحتوي على ملايين الحيوانات المنوية، وحيوان واحد ينسل منها ليلقح بويضة الأنثى التي تنسل من حويصلة البويضة وبذلك تنشأ البويضة الملقحة التي هي أول أطوار الجنين ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ ثم إنه سبحانه عدّل خلق الإنسان وسوّى شكله وناسب بين أعضائه، وصوّره على ما ينبغي أن يكون في رحم أمه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ فدبّت فيه الحياة، ولقد أضاف اللّه الروح إليه سبحانه التي نفخها في الإنسان للتشريف والتكريم له، وأنه مَيَّزه عن غيره من المخلوقات، والروح أمر رباني لم يعطِ اللّه سرّها لأحد، ولم يتوصل الإنسان إلى معرفة كنهها، وقد سُئل رسول اللّه محمد ﷺ عن الروح فنزل الوحي الإلٓهي مجيباً عن ذلك: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥).

ويتابع القرآن تعداد فضل اللّه على الإنسان: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ فالترتيب الذي ذكره القرآن ابتداءً من السمع ثم البصر ثم الأفئدة هو ترتيب ممارسة هذه الحواس، فحاسة السمع تبدأ مبكرة جداً في حياة الجنين في الأسابيع القليلة الأولى، وأما البصر فيبدأ في الشهر

الثالث، وأما الفؤاد وهو الإدراك والتمييز فلا يتم إلّا بعد ذلك[1].

والأفئدة هي القلوب والمراد منها العقول وقد جعلها اللّه موطن الإدراك والفهم والفكر، هذا مع العلم أن الدماغ هو موطن الإدراك، ولكن بما أن القلب يغذي الدماغ بالدم وأن حياة الدماغ ونشاطه متوقفان على القلب، لذا جعل اللّه القلب موطن الإدراك والفهم والفكر. ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ بيان لكفرهم لِنِعَم اللّه وتركهم للشكر لها، إلّا فيما ندر من الأحوال، والشاكرون لِنِعَم اللّه عليهم هم قلة من البشر ولذا يقول تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

ثم بيَّن القرآن اعتراضات المشركين على البعث بقوله:

﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ. قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾. (١٠ ـ ١١).

فالمشركون باللّه قالوا معترضين على البعث: ﴿وَقَالُوا: أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي إذا هلكت أجسادنا في الأرض وتحللت وصارت تراباً مخلوطاً بتراب الأرض وغابت فيه ولم تتميز عنه ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي أنُبْعَث أحياءً بعد الموت، والاستفهام لإنكار البعث ﴿بَلْ[2] هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ انتقال من جحودهم للبعث إلى بيان جحودهم للقاء اللّه، لأن

---

(١) ومن جهة أخرى فإن بدء تخلق السمع في الجنين يبدأ من الأسبوع الثالث من الحمل، أما العينان فيبدأ تخلقهما في الأسبوع الرابع من الحمل. . . ومن الوجهة الوظيفية فإن حاسة السمع أهم من حاسة البصر في تنمية القدرات العقلية والشعورية عند الطفل، فمن الأسباب الرئيسية للتخلف العقلي ـ ٣٠٪ بحسب الإحصاءات ـ تعطل آلة السمع عند المولود. (عن كتاب: من علم الطب القرآني للدكتور عدنان الشريف).

(٢) بل: تفيد الانتقال من معنى إلى آخر وتسمى إضراباً انتقالياً.

لقاءهم لله يستوجب محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وهم يريدون التهرب وإبعاد هذه الفكرة من أذهانهم ليتمادوا في غيهم وضلالهم ﴿قُلْ يَتوفَّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الذي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله بأن ملك الموت الذي فوّضه الله ووكّله بكم هو الذي يميتكم بقبض أرواحكم عند استيفاء آجالكم ومعه أعوان من الملائكة ﴿ثُمَّ إلى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ﴾ ثم إلى ربكم يوم القيامة تُردُّون أحياء فيجازي منكم المحسن على إحسانه والمسيء عن إساءته.

فالقرآن ينبه الإنسان إلى الموت الذي ينتظره على يد ملك الموت حيث ترجع الأرواح إلى خالقها، فليست الدنيا نهاية المطاف بل هناك بعث وجزاء، هذه الحقيقة إذا وعاها الإنسان دفعته إلى تغيير سلوكه نحو الأحسن والأفضل والكف عن كل ظلم أو إجرام يزاوله خوفاً من العقاب الإلّهي بعد الممات.

وبعد تقرير هذه الحقيقة التي يغفل عنها الكثير من الناس يلفت القرآن الأنظار إلى مصير المجرمين في الآخرة:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ المُجْرِمُونَ نَاكِسوا رُؤُوسِهِم عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إنَّا مُوقِنُونَ. وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. فَذُوقوا بِمَا نَسِيتُم لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ (١٢ ـ ١٤).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ المُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِم عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لو: حرف يفيد هنا معنيان إما التمني بمعنى: وليتك ترى يا محمد هؤلاء المجرمين في موقف الحساب بين يدي ربهم على تلك الحالة المزرية

من الخزي والغم لَشَمِتَّ بهم، والتمني لرسول الله أن يراهم على تلك الحالة المزرية لأنه لاقى منهم صنوف الأذى والاضطهاد. وقد يكون حرف «لو» للامتناع حذف جوابه وتقديره: لرأيت أمراً عظيماً. والمعنى: لو أُتيح لك أن ترى المجرمين في موقف الحساب أمام ربهم لرأيت أمراً عظيماً، إذ المجرمون مطأطئو رؤوسهم من الندم وحياءً من ربهم بسبب معاصيهم التي اقترفوها في دنياهم ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ إنهم يقولون: ربنا أبصرنا صدق وعدك ووعيدك وسمعنا منك تصديق ما كانت رسلك تأمرنا به في الدنيا ﴿فارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً﴾ فارددنا يا رب إلى الدنيا لنعمل فيها بطاعتك ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي إننا نعلم علماً لا شك فيه ما كنا جاهلين به من وحدانيتك، وأنه لا يصح أن يُعبد سواك وأنك تحيي الموتى بعد فناء أجسادهم، وأنك تحاسبهم وتجازيهم على ما اقترفوا في دنياهم من المعاصي، وهذا اعتراف منهم بذنبهم ولكن بعد فوات الأوان.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ أي لو شاء الله لأعطى كل نفس رشدها ووفّقها للإيمان به فهدى الناس جميعاً فلم يكفر منهم أحد، ولكن إرادة الله اقتضت أن يكون لهذا المخلوق المسمى بالإنسان طبيعة خاصة يملك معها التمييز بين الهدى والضلال ويختار أحدهما، ويؤدي دوره في هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة التي خلقه الله عليها لحكمة يريدها سبحانه: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ ولكن وجب العذاب من الله لأهل الضلال ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي ليملأن الله جهنم من إبليس وأتباعه من الجن والناس جميعاً لعلمه سبحانه أن أكثرهم سيختارون الضلال على الهدى وأنهم سيكونون من أهل الشقاوة.

هذه هي الحقيقة التي نراها واضحة عند أكثر الناس في بقاع الأرض فنراهم قد حادوا عن سبيل الله وانغمسوا في الشرور والآثام وأعرضوا عن

عبادة ربهم الواحد الأحد وعبدوا آلـهة غير اللّه، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه، وجعلوا أموالهم وأهواءهم معبـودات لهم غير مكتـرثين لوصايا ربهم، ولهذا ضلوا وسلكوا طريق الشيطان واستحقوا عذاب اللّه في الآخرة.

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُم لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذَا﴾ أي يقال لهؤلاء المشركين باللّه المنكرين للبعث على سبيل التقريع والتوبيخ لهم عند دخولهم النار: ذوقوا عذاب اللّه بما نسيتم لقاء هذا اليوم الذي لم تستعدوا له بالعمل الصالح ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي إنا تـركناكم اليوم في العذاب تـرك المنسي ـ واللّه لا ينسى أحداً ـ يعاملون معاملة المهملين المنسيين ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ هنا تكرار لما سبق للتأكيد على عذابهم وأنه عذاب دائم خـالد بسبب ما عملوه في الدنيا من المعاصي والآثام.

إِنَّمَا يُؤْمِنُ
بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم
مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا
كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ
فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا
وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم
مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ

شرح المفردات

خَرُّوا سُجَّداً: سجدوا للّه والسجود وضع الجبهة على الأرض.

سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِم: نزهوا اللّه عن النقائص وقدسوه متلبسين بحمده.

تتجافى: ترتفع وتبتعد.

جُنُوبُهم: جمع جنب وهو شق الإنسان وناحيته التي ينام عليها.

المَضَاجِع: الفُرُش.

يَدْعُونَ رَبَّهم: يعبدون ربهم.

مِنْ قُرَّةِ أعين: من موجبات المسرة والفرح.

نُزُلاً: النزل ما يُهيَّأ للضيف وفيه يأكل وينام.

العَذَابِ الأدنى: عذاب الدنيا.

دون العذاب الأكبر: غير عذاب الآخرة في النار.

ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون (٢٢)
ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه
هدى لبني إسرائيل (٢٣) وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا
وكانوا بآياتنا يوقنون (٢٤) إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة
فيما كانوا فيه يختلفون (٢٥) أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من
القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون (٢٦)
أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه
أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون (٢٧) ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم
صادقين (٢٨) قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم
ينظرون (٢٩) فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون (٣٠)

شرح المفردات

في مِرْيَة : في شك وتردد.
يَهْدُون بِأَمْرِنَا : يدعون الناس إلى الهدى بأمر الله.
يُوقنون : يعلمون علماً لا شك فيه.
الأرض الجُرُز : الأرض اليابسة التي لا نبات فيها.
الفَتْح : النصر.
يُنْظَرون : يمهلون ويؤخرون لتوبة وعمل صالح.

تابع سورة السجدة

وفي هذا الجو القاتم من عذاب المجرمين ينقلنا القرآن إلى الحديث عن المؤمنين وما كانوا يقومون به من عبادة لله في الدنيا وإحسان يؤهلهم إلى ثواب الله ورضوانه :

﴿إنما يُؤْمِن بآياتنا الَّذين إذا ذُكِّروا بها خرُّوا سُجَّداً وَسبَّحُوا بِحَمْدِ ربِّهِم وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُون. تتجافى جُنُوبُهُمْ عَن المَضاجع يَدْعُون رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رزَقْنَاهُم يُنْفِقُون. فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانوا يَعْمَلُون﴾ (١٥ ـ ١٧).

فالله سبحانه يقول: إنما يُصدِّق بآيات القرآن وينتفع بها المؤمنون الذين إذا وُعظوا بها ﴿خَرُّوا سُجَّداً﴾ سجدوا لله تذللاً له واستكانة لعظمته وإقراراً له بالعبودية. والسجود هو ملاصقة جبهة الإنسان بالأرض وهو منتهى الخضوع لله وهو غير جائز لغيره سبحانه. ﴿وَسَبَّحوا بِحَمْدِ رَبِّهِم﴾ ونزّهوا الله عن النقائص وبرأوه مما يصفه به أهل الكفر وينسبون إليه من الزوجة والولد والشركاء، وأثنوا عليه حامدين له على نعمه ﴿وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وهم لا يستكبرون عن عبادته وعن السجود له.

وفي القرآن كثير من الآيات فيها الحث على السجود لله أو فيها الثناء على عباد الله المتقين الأبرار الذين من صفاتهم كثرة السجود لله، وإن من واجبات المؤمن الذي خالط الإيمان شعاب قلبه واستشعر عظمة الله أن ينفعل ويخشع إذا أُمِر بالسجود لله فيخر على الفور ساجداً لله مسبّحاً بحمده، ولهذا كان من الأمور المستحبة في الإسلام أن من قرأ آية في القرآن فيها سجود لله أو سمعها يستحب له أن يكبر ويسجد سجدة ثم يكبر للرفع

وهذا ما يُسمى سجود التلاوة[1].

ومواضع السجود في القرآن خمسة عشر موضعاً منها الآية التي مرَّ ذِكرها وهي من عزائم سجود القرآن.

ولا ريب أن السجود لله هو أعلى مراتب العبودية له، وفي السجود تعلو منزلة الإنسان عند الله ويكون في ذلك من المقربين له، وقد جاء في القرآن: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد[2] من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[3].

ويتابع الله وصف الأبرار: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي تتباعد وتتنحى جنوبهم عن مواضع الاضطجاع، والجنوب: جمع جنب وهو شق الإنسان وغيره وهو ما تحت الإبط إلى الكشح[4]. والمراد بذلك التباعد عن المضاجع هو هجرهم النوم وقيامهم آناء الليل وأوقاته للتهجد والعبادة وصلاة النوافل في وقت منام الناس المعروف، ويشمل ذلك صلاة النوافل بعد صلاة المغرب وانتظار صلاة العشاء حتى يصليها قبل أن ينام ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ يعبدون ربهم ويصلّون له خوفاً من عذابه وطمعاً في ثوابه.

---

(١) لا تَشهُّد في سجود التلاوة ولا تسليم كما يُفعل في الصلاة هذا عند الأئمة الحنفية والمالكية أما عند الشافعية والحنابلة فيسلم التسليمة الأولى.

(٢) العبد: المراد به الإنسان بالنسبة إلى عبوديته لله وليس المراد به العبد الرقيق الذي هو خلاف الحر.

(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

(٤) الكشح: ما بين الخاصرة والضلوع.

وقد روي أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «ألا أدُلُّكَ على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة[1]، والصدقة تُكفِّر الخطيئة، وقيام الرجل (أي للعبادة) في جوف الليل ثم قرأ رسول الله قول الله تعالى: ﴿تتجافى جُنُوبُهُم عَنِ المَضَاجِعِ... إلى قوله: يعملون﴾[2].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ﴾ ومن صفات المؤمنين الأبرار إنفاقهم المال الذي رزقهم الله به في وجوه الخير صدقة وزكاة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ فلا تعلم نفس مقدار ما أعدّه الله وأخفاه لهؤلاء من النعيم العظيم مما تسرّ به قلوبهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثواباً لهم بما كانوا يعملون من طاعة الله والأعمال الصالحة.

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ قوله: «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عَيْنٌ رأت ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَر[3]، واقرأوا إن شئتم قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى المقارنة بين المؤمنين الطائعين لله وبين المذنبين الخارجين عن طاعة الله مبيّناً مصير كل منهما في الآخرة:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ. أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا

---

(١) الصوم جُنَّة: أي الصوم وقاية من الشهوات.

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الذي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٨ - ٢٠).

فالله سبحانه يقول: أفمن كان مؤمناً بالله مصدّقاً بوعده ووعيده مطيعاً له في أمره ونهيه ﴿كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً﴾ كمن كان كافراً مكذباً بوعد الله ووعيده خارجاً عن طاعة ربه ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ أي لا يتماثلون عند الله في الجزاء والثواب والعقاب ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أما الذين صدقوا بوحدانية الله وبرسوله محمد وعملوا بما أمرهم الله به من صالح الأعمال ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ المأوى﴾ فلهم الجنات التي فيها المساكن التي يأوون إليها، والمأوى كلمة تدل على الراحة والاستقرار، وأضيفت الجنة إلى المأوى لأنها المأوى الحقيقي، وإنما الدنيا منزل زائل مرتحل عنه لا محالة ﴿نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والنُزُل ما يعدُّ للضيف من طعام وغيره، أي ثواباً معدًّا لإكرامهم بما قدموه من صالح الأعمال ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا[1] فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ وأما الذين خرجوا عن طاعة الله فمنزلهم في النار ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي كلما أرادوا الخروج من النار رُدّوا إليها مرغمين مكرهين ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا[2] عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي وتقول لهم خزنة جهنم تقريعاً وتوبيخاً: ذوقوا عذاب النار المؤلم الذي كنتم تكذبون به في الدنيا وتهزءون منه وتنكرونه.

ويتابع الله تهديده للفاسقين الموغلين في الكفر والضلال:

---

(١) فسقوا: الفسق هو الإفحاش في الخروج عن طاعة الله واستعمل الفسق بمعنى الكفر والضلال. والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير لكن تعورف فيما كان كثيراً.

(٢) ذوقوا: ذاق الشيء أدرك طعمه في فمه ويستعمل لغة في الإحساس العام الذي تشترك فيه جميع قوى الحس.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ المجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ (٢١ - ٢٢).

فالله ينذر العصاة الخارجين عن طاعته بأنه سيذيقهم ﴿العَذَابِ الأَدْنَى﴾ من مصائب الدنيا وأسقامها وبلائها ﴿دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ﴾ أي قبل العذاب الأكبر وهو عذاب النار يوم القيامة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلهم يتوبون عن الكفر والمعاصي قبل عذاب يوم القيامة، ولقد عذب الله المشركين بالقتل والجوع والشدائد والمصائب في الأموال فأوفى لهم بما وعدهم به.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن وُعِظ بحجج الله وآيات القرآن ﴿ثم أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ثم أعرض عن ذلك كله فلم يتعظ بمواعظ الله ولكنه استكبر عنها فهو أظلم من كل ظالم لأنه رأى الحق فلم يتبعه ﴿إِنَّا مِنَ المجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ إن الله يعاقب الذين اكتسبوا السيئات واجترحوا الآثام.

فآيات القرآن تدعو إلى الخير المطلق وتنهى عن كافة أنواع الشرور وتأمر بالعدالة الكاملة، فالإعراض عن هذا الهدى الربّاني هو إجرام في حق الإنسان والجماعة والإنسانية، والله لن يترك المجرم بلا عقاب.

ثم يتحدث القرآن عن نبوة موسى الذي أنزل الله عليه التوراة وإلى اصطفاء الله للصابرين من قومه الموقنين بآيات الله:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فلا تَكُن في مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢٣ - ٢٥).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي ولقد أعطينا موسى التوراة كما أعطيناك يا محمد القرآن ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ فلا تكن في شك من أنك لقيت موسى ليلة أسري بك إلى بيت المقدس، كما رأيت غيره من الأنبياء، كما قد رآه أيضاً ليلة المعراج عندما صعد إلى السماء وقيل بمعنى: فلا تكن يا محمد في شك من تلقيك القرآن كما تلقى موسى التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي جعلنا التوراة هداية لبني إسرائيل من الضلالة. وقيل إن الضمير في جعلناه راجع إلى موسى، أي وجعلنا موسى هادياً لبني إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ وجعلنا من بني إسرائيل أئمة في الدين، وقادة في الخير يُقتدى بهم ويُهتدى بهديهم ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يدعون الخلق إلى ديننا وطاعتنا بأمرنا وتكليفنا لهم بذلك ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ لصبرهم على مصائب الدنيا وعزوفهم عن شهواتها ولذاتها، واجتهادهم في طاعتنا والتزامهم العمل بالتوراة ومقاساة الشدائد في نصرة الدين ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ وكانوا يصدِّقون بآيات اللّه المنزلة على رسله ويعلمون بأنها حق لا ريب فيها، لمزيد تفكرهم وكثرة تدبرهم بها.

فالصبر على طاعة اللّه والعزوف عن الدنيا وملاذها في سبيل اللّه ومقاساة الشدائد في نصرة الدين، والعمل بشريعة اللّه وأحكامها مع اليقين بها يؤهل المتصف بذلك إلى أرفع الرتب الدنيوية وهي الإمامة في الدين التي تلي رتبة النبوة، هذه الإمامة التي يكون صاحبها مؤيداً بتوفيق اللّه مقرّباً منه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إن ربك يا محمد يقضي ويحكم بين الأنبياء وأممهم يوم القيامة ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيما كانوا يختلفون فيه في الدنيا من أمور الدين فيفرق بينهم بقضاء فاصل فيدخل أهل الحق الجنة، وأهل الباطل النار.

ثم ينتقل القرآن إلى تهديد المشركين مبيناً مصير الذين كانوا على شاكلتهم من الأمم السابقة مع بيان قدرة اللّه على البعث:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ[1] يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٦ ـ ٢٧).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي أغفلوا ولم يتبين لهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ الْقُرُونِ﴾ كثرة إهلاكنا القرون الخالية من قبلهم كقوم عاد وثمود وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِم﴾ أي يمر المشركون من العرب على ديار هؤلاء الأمم البائدة في رحلاتهم التجارية ويشاهدون آثار هلاكهم ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي أفلا يسمعون عظات اللّه سماع تدبر واتعاظ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ أَعَمُوا ولم يروا أن اللّه بقدرته يدفع السحب التي تجود بالمطر ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ إلى الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ فيخرج اللّه بذلك المطر الذي يسوقه إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها زرعاً أخضر تأكل منه مواشيهم وتتغذى به أبدانهم ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ أفلا يرون ذلك بأعينهم فيعلموا أن القدرة الإلهية التي فعلت ذلك لا يتعذر عليها إحياء الموتى يوم القيامة للحساب والمجازاة.

---

(١) القرون: جمع قرن والقرن من الناس أهل زمان واحد.

ثم يختم اللّه هذه السورة مبيناً استعجال الكفار لوقوع العذاب بهم استبعاداً وتكذيباً مع تطمين المؤمنين بالنصر على أعدائهم:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ. قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُم وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ. فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُنْتَظِرُونَ﴾ (٢٨ - ٣٠).

فالمسلمون كانوا يقولون إن اللّه سيفتح لنا على المشركين ويفصل بيننا وبينهم، وكان المشركون يقولون بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاءً: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي متى تنصرون علينا، أو متى يفصل اللّه بالحكم بيننا وبينكم ﴿إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ في دعواكم من أننا معاقبون على تكذيبنا محمداً وعبادتنا للآلهة والأوثان ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنْفَعُ الَّذِين كَفَرُوا إِيمانُهُم﴾ فيوم الفتح وهو يوم القيامة هو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم عليهم حيث لا ينفع الكفار تصديقهم باللّه ورسوله محمد واستعدادهم للعمل الصالح، فالإيمان مكانه في الدنيا قبل الممات، وقد يراد بيوم الفتح يوم معركة بدر التي قتل فيها سبعون من كفار قريش، فهؤلاء الذين قتلوا لا ينفعهم إيمانهم في حال إشرافهم على الموت كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إشرافه على الغرق ﴿وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ولا هم يمهلون ويؤخرون في العذاب ﴿فَأَعْرِض عَنْهُم﴾ فأعرض يا محمد عن ضلالهم وتكذيبهم ولا تجبهم إلّا بما أُمرت به ﴿وَانْتَظِرْ﴾ أي انتظر صدق ما وعدك ربك فيهم من النصر عليهم ﴿إِنَّهُم مُنْتَظِرُونَ﴾ إن الكفار منتظرون الغلبة عليكم أيها المسلمون، أو إنهم منتظرون ما تعدهم به يا محمد من العذاب، أو منتظرون يا محمد حادث موت أو قتل يصيبك.

وقد تحقق انتظار النبي بالنصر وخاب انتظار الكفار بدحر المؤمنين.

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر بن جرير الطبري.

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

التفسير الكبير للفخر الرازي.

تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد العمادي.

فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني.

تفسير الكشاف لمحمود بن عمر الزمخشري.

تفسير البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسي.

المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة.

في ظلال القرآن لسيّد قطب.

حديث رمضان للشيخ محمد مصطفى المراغي ـ دار الهلال بمصر.

المفردات في غريب القرآن للأصبهاني.

معجم ألفاظ القرآن الكريم ـ مجمع اللغة العربية ـ القاهرة.

القرآن ـ محاولة لفهم عصري لمصطفى محمود ـ دار الشروق.

الله والكون للدكتور محمد جمال الدين الفندي.

كُتُب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي .
- روح الدين الإسلامي (باللغة الإنكليزية) .
- مع الأنبياء في القرآن الكريم .
- روح الصلاة في الإسلام .
- الخطايا في نظر الإسلام .
- اليهود في القرآن .
- الحكمة النبوية .
- تفسير جزء عم .
- تفسير جزء تبارك .
- تفسير جزء قد سمع .
- تفسير جزء والذاريات .
- تفسير جزء الأحقاف .
- تفسير جزء الشورى .
- تفسير جزء الزمر .
- تفسير جزء يّس .
- تفسير جزء الأحزاب .
- تفسير ربع يّس (مجلدان) .

هذا التفسير

- يعرضُ آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر .
- يعالج التفسير بطريقةٍ مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ .
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسّنّة النبويّة وفقه اللغة .
- يبيّن التفسير العلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجازه .
- يعرض التفسير بأسلوبٍ سهل وطريقةٍ مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع .
- يفسّر المجمل من الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥